منهج القاصد

تهذيب مختصر منهج القاصدين

لابن قدامة المقدسي

اختصره ورتبه

محمد صالح بن أحمد الغرسي

مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع

دار نور المكتبات

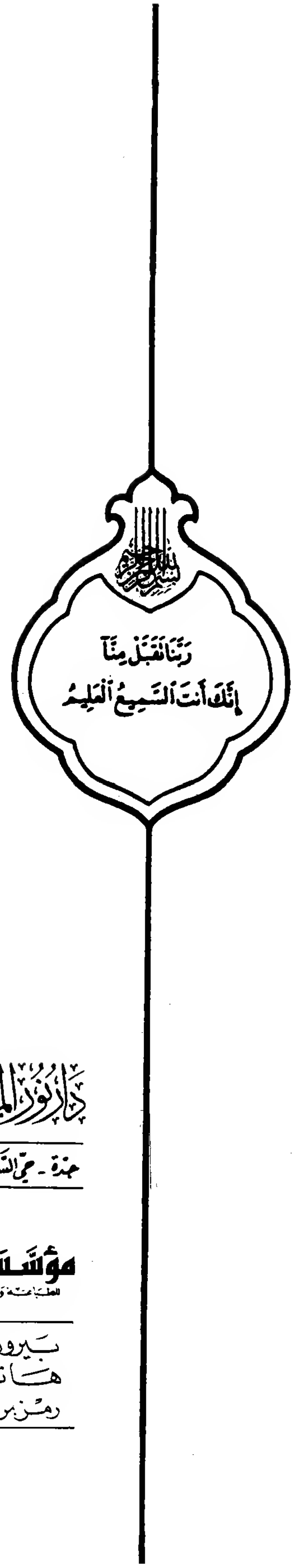

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م

دار نور المكتبات
جدة - حي السلامة - بجوار جامع الشعيبي - هاتف وفاكس: ٦٨٣٨٠٥١ جدة - السعودية

مؤسسة الريان
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان - هاتف وفاكس (الإدارة): ٦٥٥٣٨٣
هاتف: (المكتبة) ٧٠٥٩٢٠ - ص. ب: ١٤/٥١٣٦
رمز بريدي: ١١٠٥٢٠٢٠ - بريد الكتروني: ALRAYAN@cyberia.net.lb

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾ آمين.

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون.

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم إنك حميد مجيد.

أما بعد؛ فممّا لا يخفى على ذي بصيرة أن الأمة الإسلامية قد أصيبت بأمراض فتّاكة تردَّت بها من أوج العِزّ إلى حضيض الذل، ومن سماء المجد إلى أرض الهوان وأصل تلك الأمراض-كما نطق به الحديث الشريف ـ هو الوهن والخواء الروحي واستيلاء حب الدنيا على القلوب، والتنافس فيها، الأمر الذي أنساهم الله تعالى: ﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾ نسوا أنفسهم التي هي بين جنبيهم، ونسوا طاعة ربهم الذي هو أقرب إليهم من أنفسهم ونسوا التخلق بالخلق العظيم لنبيهم الكريم المرسل رحمة للعالمين، والمبعوث لتتميم مكارم الأخلاق التي هي مصدر عزهم ومجدهم، وسعادتهم الدنيوية والأخروية، ونسوا عزهم ومجدهم وسعادتهم المفقودة، ونسوا ذلهم وهَوَانَهم وشقاءهم الموجودة، ونسوا أنهم قد نسوا كل ذلك.

فالواجب على علماء الأمة ومربيها وأطباء قلوبها ووارثي نبيها أن

يذكّروا هذه الأمة المرحومة بربها خالقها ورازقها، ويذكروها بنفسها وواقعها ومصيرها ويذكروها بطاعة ربها وبالتخلق بخلق نبيها مصدر عزها وسعادتها ويذكروها بأن مصدر واقعها من الذل والهوان والشقاء هو الخواء الروحي والابتعاد عن منهج نبيها والتكالب على الدنيا والتنافس فيها، وهو الوهن الذي فسره النبي ﷺ بحب الدنيا وكراهية الموت.

ومن أجدى طرق التذكير وأقواها وأشملها وأولاها: نشر الكتب التي تناجي قلوب الأمة وعقولها وتؤثر فيها، وتحول وجهتها إلى ربها وطاعته وذكره والتفكر في عجائب صنعه وتنبهها على التفكر في واقعها ومصيرها في دنياها وعقباها. وتحثها على محاسبة نفسها ومراقبتها، وإعداد العدة لغدها ومصيرها.

وعلماء الأمة لم يألوا جهداً في هذا المجال، وقاموا بواجبهم على حسب ما يقتضيه الزمان والحال.

ومن أشهر الكتب المؤلفة في هذا المجال وأجداها وأوسعها وأقواها كتاب «إحياء علوم الدين» للإمام أبي حامد الغزالي، رحمه الله تعالى رحمة واسعة وجزاه عن الأمة خير الجزاء؛ فإنه له بتأليف هذا السفر العظيم على الأمة يداً مشكورة ومنّة غير منكورة، بالإضافة إلى مالـهُ في الإسلام من أيد بيضاء.

ثم أتى بعده الإمام الناقد أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي رحمه الله فاستطال الكتاب، ورأى أنه محتو على أشياء غير محمودة ينبغي حذفها. والإبقاء على ما هو خير محض، فاختصره في كتابه «منهاج القاصدين» لكن كتابه هذا لم يكتب له من الانتشار والقبول ما كتب لأصله ولا ما يقاربه فبقي الأصل ـ على علاته ـ هو المرجع الأصلي للأمة في هذا المجال ومعتمدها على مر العصور والأجيال.

ثم جاء الشيخ أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي فاستطال مختصر ابن الجوزي، ورأى أن الأمة في عصره بحاجة إلى كتاب تربوي خلقي مختصر يقتصر على نقاية «الأحياء» و «المنهاج» فاختصر المنهاج في كتابه المعروف «مختصر منهاج القاصدين».

قال في مقدمة مختصره بعد الخطبة:

وبعد: فإني كنت وقفت مرة على كتاب «منهاج القاصدين» للشيخ الإمام العالم الأوحد جمال الدين ابن الجوزي ـ رحمه الله تعالى ـ فرأيته من أجلِّ الكتب وأنفعها وأكثرها فوائد، فحصل عندي بموقع، ورغبت في تحصيله ومطالعته، فلما تأملته ثانياً وجدته فوق ما كان في نفسي لكن رأيته كتاباً مبسوطاً، فأحببت أن أعلق منه هذا المختصر الذي قد احتوى على أكثر مقاصده وأجل مهماته وفوائده سوى ما ذكر في أوائله من مسائل ظاهرة تتعلق بالفروع، فإنها مشهورة في كتب الفقه المستفيضة بين الناس، إذ المقصود من الكتاب غير ذلك. انتهى.

ومختصر ابن قدامة هذا وإن لم يكتب له من الانتشار والقبول في الأوساط العلمية والتربوية عقب تأليفه وبعده بعصور ما هو جدير به، إلاّ أنه قد تحول في عصر الطباعة إلى الكتاب الوحيد في بابه، والسفر الفريد في رحابه فاعترف بفضله العلماء المحققون، وعول عليه المربون المتحققون، فقل مكتبة من مكاتب العلماء والمربين لم تحتو عليه، وندر قلب من قلوب قاصدي طريق الله لم يَصْبُ إليه.

وهذا يدل على ذوق العلماء المعاصرين المرهف في حسن انتقائهم للكتب النافعة للأمة التي تؤثر على واقعها ومصيرها.

والكتاب بما احتوى عليه من نقاية الكتب التربوية المعتمدة للأمة، وبما تعاور عليه من جهود هؤلاء الأئمة الكبار النوابغ، وتناوبه من أعمال أولئك المربين العظام ـ جدير بهذا التقدير والعناية، وحقيق بهذا الاهتمام وزيادة.

لكن الأمة الإسلامية ـ بما ابتليت به من الأمراض الفتاكة التي أبعدتها عن ربها، وأقصتها عن دينها ومنهج نبيها، وشغلتها بدنياها وشهواتها ـ لم تعد ترغب في قراءة الكتب التي فيها شيء من التطويل، ولا سيما إذا كانت محتوية على الدقائق الدقيقة لأمراض النفس ولطرق علاجها وتربيتها التي هي بمراحل عن الرغبة في معرفتها.

وأصبحت بأمسِّ حاجة إلى الكتب المختصرة التي تشتمل على نقاية النقاية ولب اللباب التي تسعفها في إنقاذها من الأخطار العظيمة المحدقة بها التي كادت تأتي عليها وتستأصل شأفتها، تلك الكتب التي يخف وقعها على الجيب وعلى اليد وعلى العقل والقلب، ومع ذلك يقوى تغلغلها في أعماق العقل وسويداء القلب.

وأقرب الكتب إلى ما وصفته ما كان نقاية النقاية لمثل كتابَي «منهاج القاصدين» و «إحياء علوم الدين» ولباً للبابهما.

فمن أجل ذلك رأيت أن أختصر «مختصر منهاج القاصدين» وأقتصر منه على النقاية واللب، وقد وفقني الله تعالى إلى اختصاره في نحو ربع حجمه في قريب من أربعة أيام. وقد جاء ـ بفضل الله وكرمه ـ على ما يبتغى ويرام، ثم أضفت إليه إضافات ترفع من قدره صدرت غير الأحاديث منها بقولي «أقول» وخرجت أحاديثه النبوية، وحذفت منها الضعيفة أو بدلتها بالصحيحة ولم أُبق من الأحاديث الضعيفة إلا قلة قليلة لعلها لا تتجاوز عدد الأصابع نبهت على ضعف معظمها وقدمت باب «النية والإخلاص والصدق».

ولقبته بلقب يكون سمة عليه، وعنواناً على فضله ويلفت الأنظار إليه وهو «منهج القاصد» أي: قاصد طريق الله تعالى.

والله ـ سبحانه وتعالى أسأل ـ أن ينفع به كما نفع بأصوله.

وأن يوفقني إلى حسن النية وحسن العمل وحسن الختام وأن يرزقني الحسنى وزيادة.

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

محمد صالح بن أحمد الغرسي

قونية/ ٧ ذي الحجة ١٤٢١ هـ

الربع الأول من الكتاب

ربع العبادات

النية وحقيقتها وفضلها وما يتعلق بذلك

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢] والمراد بالإرادة: النية.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»[1].

وعن أبي موسى قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله أرأيت الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حميَّةً، ويقاتل رياءً، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله». أخرجاهما في «الصحيحين»[2].

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لقد خلفتم بالمدينة رجالا، ما قطعتم وادياً، ولا سلكتم طريقاً إلا

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٢)، ومسلم (٦/ ٤٨) من حديث عمر بن الخطاب.
(٢) البخاري (١/ ٤٣، ٤/ ٢٥)، مسلم (٦/ ٤٦).

شركوكم في الأجر، حبسهم المرض»[1].

واعلم أن الأعمال تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: المعاصي، فلا تتغير عن موضعها بالنية، مثل من يبني مسجداً بمال حرام يقصد بذلك الخير، فإن النية لا تؤثر فيه، فإن قصد الخير بالشر شر آخر.

القسم الثاني: الطاعات، وهي مرتبطة بالنيات في أصل صحتها، وفي تضاعف فضلها. أما الأصل، فهو أن ينوي عبادة الله تعالى لا غير، فإن نوى الرياء صارت معصية. وأما تضاعف الفضل، فبكثرة النيات الحسنة، فإن الطاعة الواحدة يمكن أن ينوي بها خيرات كثيرة، فيكون له بكل نية ثواب، إذ كل واحدة منها حسنة، ثم تضاعف كل حسنة عشر أمثالها.

مثال ذلك القعود في المسجد، فإنه طاعة، ويمكن أن ينوي بها نيات كثيرة: منها أن ينوي بدخوله انتظار الصلاة، ومنها الاعتكاف وكف الجوارح، فإن الاعتكاف كف، ومنها دفع الشواغل الصارفة عن الله تعالى بالانقطاع إلى المسجد، وإلى ذكر الله تعالى فيه، ونحو ذلك، فهذا طريق تكثير النيات، فقس على ذلك سائر الطاعات، إذ ما من طاعة إلا وتحتمل نيات كثيرة.

القسم الثالث: المباحات، فما من شيء من المباحات إلا ويحتمل نية أو نيات، تصير بها قربات، وينال بها معالي الدرجات، فما أعظم خسران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطي البهائم المهملة.

ولا ينبغي أن يحتقر العبد الخطرات واللحظات، فكل ذلك يسأل عنه في القيامة، لم فعله؟ وما الذي قصد به؟.

مثال ما ينوي به القربة من المباحات أن يتطيب، وينوي بالطيب اتباع السنّة، واحترام المسجد، ودفع الروائح الكريهة التي تؤذي مخالطيه.

وقال الشافعي رحمه الله من طاب ريحه زاد عقله.

---

(١) أخرجه مسلم (٦/ ٤٩) من حديث جابر والبخاري (٤/ ٣١) من حديث أنس.

وكذلك معالجة رأسه تزيد فطنته وذكاءه، فيسهل عليه إدراك مهمات دينه.

وقال بعض السلف: إني لأستحب أن يكون لي في كل شيء نية، حتى في أكلي وشربي ونومي ودخولي الخلاء، وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب إلى الله تعالى، لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات الدين، فمن قصد من الأكل التقوي على العبادة، ومن النكاح تحصين دينه، وتطييب قلب أهله، والتوصل إلى ولد يعبد الله بعده، أثيب على ذلك كله. ولا تحتقر شيئاً من حركاتك وكلماتك، وحاسب نفسك قبل أن تحاسَب، وصحح نيتك قبل أن تفعل ما تفعله، وانظر في نيتك فيما تتركه أيضاً.

واعلم: أن النية هي انبعاث النفس وميلها إلى ما ظهر لها أنه مصلحة لها، إما في الحال أو المآل، وربما سمع بعض الجهال ما أوصينا به من تحسين النية، فقال عند أكله: نويت أن آكل لله، أو عند قراءته: نويت أن أقرأ لله، وظن أن ذلك نية، وليس كذلك، إنما النية انبعاث القلب، وتجري مجرى الفتوح من الله تعالى، وليست النية داخلة تحت الاختيار، فقد تتيسر في بعض الأوقات، وقد تتعذر، وإنما تتيسر له في الغالب لمن قلبه يميل إلى الدين دون الدنيا.

والناس في النيات على أقسام.

منهم: من يكون عمله للطاعة إجابة لباعث الخوف.

ومنهم: من يكون عمله إجابة لباعث الرجاء.

وثمة مقام أرفع من هذين، وهو أن يعمل الطاعة على نية إجلال الله تعالى لاستحقاقه الطاعة والعبودية، وهذه لا تتيسر لراغب في الدنيا، وهي أعز النيات وأعلاها، وقليل من يفهمها، فضلاً عن أن يتعاطاها، وصاحب هذا المقام لا يجاوز ذكر الله تعالى والفكر في جلاله حباً له.

وقد حكى أحمد بن خضرويه أنه رأى رب العزة في منامه، فقال له: كل الناس يطلبون مني، وأبو يزيد يطلبني.

وغرضنا من هذه النيات متفاوتة في الدرجات. ومن غلب على قلبه منها، فربما لم يتيسر له العدول إلى غيرها، ومن حضرت له نية في المباح، ولم تحضر في فضيلة، فالمباح أولى، وانتقلت الفضيلة إليه.

مثال ذلك: أن تحضره نية في الأكل والنوم ليتقوى بذلك على العبادة ويريح بدنه، ولم تنبعث نيته في الحال إلى الصلاة والصوم، فالأكل والنوم أفضل، بل لو ملَّ العبادة لكثرة مواظبته عليها، وعلم أنه لو ترفه ساعة بمباح عاد نشاطه، فذلك أفضل من التعبد حينئذٍ.

قال علي عليه السلام: روحوا القلوب، واطلبوا لها طُرَف الحكمة، فإنها تمل كما تمل الأبدان.

وقال بعضهم: روحوا القلوب تعي الذكر.

الإخلاص وفضيلته

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].
وقال: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزمر: ٣] وغير ذلك من الآيات.

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» رواه مسلم.

حقيقة الإخلاص ودرجاته ودوائه

اعلم: أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمي إخلاصاً. والإخلاص يضاده الإشراك، فمن ليس مخلصاً فهو مشرك إلا أن الشرك درجات وكذلك الإخلاص.

فالإخلاص في التوحيد يضاده الشرك في الإلهية، وهو الشرك الأكبر والشرك الجلي.

وأما الشرك الأصغر فهو الرياء وهو الشرك الخفي، والرياء أيضاً جلي وخفي.

فالرياء الجلي هو الذي يبعث على أصل العمل، ويحمل عليه، ولولا قصد الرياء لم يعمل العامل وهو الرياء بأصل العبادة وهذا مفسد للعمل ومحبط للأجر، وإن اقترن به قصد الثواب أيضاً.

وما عدا هذا من الريـاء خفي وهو درجات، وذلك إن الشوائب المكدرة للإخلاص متفاوتة بعضها أخفى من بعض، وبعضها أخفى من دبيب النملة.

فمنها: أن لا يكون اطلاع الناس باعثاً على أصل العبادة ولكن يكون منشطاً أو مقوياً للنشاط فيها، أو يكون مؤثراً في وصف العبادة كتطويل الصلاة وتحسينها لأجل الناس ففي هذا العمل يثاب العبد على قصده الصحيح ويعاقب على قصده الفاسد بحسب قوة الباعث.

ومنها: ـ وهو أخفى ـ ما لا يكون كذلك ولكن يسر باطلاع الناس على عمله.

ومنها: ـ وهو أخفى ـ أن لا يسر بذلك ولكن يكون راغباً في توقير الناس له من أجل طاعته كأنه يتقاضى عليها أجراً من الناس، وهذان القسمان ينقصان من أجر العمل ولا يوجبان إحباطاً.

والحاصل: أنه ما دام العامل يفرق بين مشاهدة الإنسان والبهيمة في حال العمل، ولم يكن وجود العبادة كعدمها فيما يتعلق بالخلق فهو خارج عن صفو الإخلاص وفيه شوب من الرياء ولكن ليس كل شوب محبطاً للأجر، بل فيه التفصيل المذكور.

ولا يسلم من الرياء الخفي إلا من دق نظره واحتدت بصيرته، وسعد بعصمة الله وتأييده.

وقد قيل: ركعتان من عالم أفضل من سبعين ركعة من جاهل، وأريد به

العالم بدقائق آفات الأعمال حتى يخلص منها، والجاهل ينظر إلى ظاهر العبادة، وقيراط من الذهب الذي يرتضيه الناقد خير من دينار يرتضيه الغر الغبي.

ومن الدواء النافع في الإخلاص والتخلص من الرياء: إخفاء الأعمال، وإغلاق الأبواب دونها كما تغلق دون الفواحش، فإنه لا دواء لداء الرياء مثل إخفاء الأعمال.

ولم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفي حريصين على إخفاء أعمالهم الصالحة أعظم مما يحرص الناس على إخفاء فواحشهم، كل ذلك رجاء أن يخلص عملهم ليجازيهم الله تعالى يوم القيامة بإخلاصهم.

أقول: ومن الدواء النافع أيضاً أن يعلم أن الخلق لا ينفعونه ولا يضرونه حقيقة، فلا يتشاغل بمراعاتهم فيتعب نفسه ويضر دينه ويحبط عمله، ويرتكب ما يجلب سخط الله تعالى ويفوِّت رضاه.

وأنجع دواء لتحصيل الإخلاص والتخلص من الرياء ومن سائر الأمراض القلبية هو المواظبة على الأذكار واستعمال أحاديث التسبيح والتهليل ونحوها من الأذكار والدعوات وسائر الآداب الشرعية، وأنفع كتاب في هذا هو «الأذكار» للإمام النووي رحمه الله فقد قالوا: «بع الدار واشتر الأذكار» فإنه حلية الأبرار وشعار الأخيار.

فعليك به فإنه كله هدى ونور. وإذا ضممت إليه كتاب «رياض الصالحين» كان أجدى وأنفع.

الصدق وحقيقته وفضله وأقسامه

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً»[1].

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

وقال بشر الحافي: من عامل الله بالصدق استوحش من الناس.

واعلم أن لفظ الصدق قد يستعمل في معانٍ.

أحدها: الصدق في القول، فحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه، ولا يتكلم إلا بالصدق، والصدق باللسان هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها.

وينبغي أن يحترز عن المعاريض، فإنها تجانس الكذب إلا أن تمس الحاجة إليها، وتقتضيها المصلحة في بعض الأحوال، وقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا أراد غزوة ورَّى بغيرها لئلا ينتهي الخبر إلى الأعداء فيتهيؤوا للقتال، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ليس بكاذب من أصلح بين اثنين فقال خيراً، أو نمّى خيراً».

وينبغي أن يراعي معنى الصدق في ألفاظه التي يناجي بها ربه، كقوله: «وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض». فإن كان قلبه منصرفاً عن الله مشغولاً بالدنيا فهو كاذب.

الثاني: الصدق في النية والإرادة، وذلك يرجع إلى الإخلاص، فإن مازج عملَه شوب من حظوظ النفس، بطل صدق النية، وصاحبه يجوز أن يكون كاذباً كما في حديث الثلاثة: العالم، والقارىء، والمجاهد، لما قال القارىء: قرأت القرآن إلى آخره، إنما كذبه في إرادته ونيته، لا في نفس القراءة، وكذلك صاحباه.

الثالث: الصدق في العزم والوفاء به.

أما **الأول**: فنحو أن يقول: إن آتاني الله مالاً تصدقت بجميعه، فهذه العزيمة قد تكون صادقة، وقد يكون فيها تردد.

وأما **الثاني**: فبأن يصدق في العزم، وتسخو النفس بإنجاز الوعد لأنه لا مشقة فيه إلا إذا انحلت العزيمة وغلبت الشهوة، ولذلك قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

الرابع: الصدق في الأعمال، وهو أن تستوي سريرته وعلانيته قال مطرف: إذا استوت سريرة العبد وعلانيته قال الله تعالى: هذا عبدي حقاً.

الخامس: الصدق في مقامات الدين ـ وهو أعلى الدرجات ـ كالصدق في الخوف والرجاء، والزهد، والرضى، والحب والتوكل، فإن هذه الأمور لها مبادىء ضعيفة ينطلق عليها الاسم بظهورها، ثم لها غايات وحقائق فالصادق المحقق من نال حقائقها، وتجاوز طرف الضعف إلى طرف القوة منها، وإلا فلا غاية لهذه المقامات حتى ينال تمامها.

* * *

كتاب العلم وفضله وما يتعلق به

قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١] قال ابن عباس رضي الله عنهما: للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمائة درجة، ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

وفي «الصحيحين» من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين».

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: ذكر لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجلان: **أحدهما**: عابد، والآخر: عالم، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم»، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله وملائكته، وأهل السموات والأرض، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت ليصلون على معلمي الناس الخير»[1].

وفي حديث آخر: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر»[2].

وعن صفوان بن عسال رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله

---

(١) رواه الترمذي وقال: حديث غريب.
(٢) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان.

وسلم قال: «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضى بما يطلب»[1].

قال الخطابي: في معنى وضعها أجنحتها ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه بسط الأجنحة.

الثاني: أنه بمعنى التواضع تعظيماً لطالب العلم.

الثالث: أن المراد به النزول عند مجالس العلم وترك الطيران.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة»[2].

وعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع»[3].

طلب العلم فريضة

روى أنس بن مالك عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه قال: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[4].

والصحيح أن هذا العلم علم معاملة العبد لربه.

والمعاملة التي كُلفها العبد على ثلاثة أقسام: اعتقادات، وأفعال، وتروك.

أما الأفعال، فإذا بلغ الصبي، فأول واجب عليه تعلم كلمتي الشهادة وفهم معناها وإن لم يحصل ذلك بالنظر والدليل، لأن النبي صلى الله عليه

---

(١) رواه الإمام أحمد (٤/ ٢٣٩) وابن ماجه (٢٢٦).
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه الدارمي والترمذي وقال حديث حسن غريب.
(٤) رواه ابن ماجه في سننه (٢٢٤) قال المزي: هو حديث حسن بطرقه.

وآله وسلم اكتفى من أجلاف العرب بالتصديق من غير تعلم دليل، فذلك فرض الوقت، ثم يجب عليه النظر والاستدلال.

فإذ جاء وقت الصلاة وجب عليه تعلم الطهارة والصلاة، فإذا عاش إلى رمضان وجب عليه تعلم الصوم، فإن كان له مال وحال عليه الحول وجب عليه تعلم الزكاة، وإن جاء وقت الحج وهو مستطيع وجب عليه تعلم المناسك.

وأما التروك: فهو بحسب ما يتجدد من الأحوال، إذ لا يجب على الأعمى تعلم ما يحرم النظر إليه، ولا على الأبكم تعلم ما يحرم من الكلام، فإن كان في بلد يتعاطى فيه شرب الخمر ولبس الحرير، وجب عليه أن يعرف تحريم ذلك.

وأما الاعتقادات: فيجب علمها بحسب الخواطر، فإن خطر له شك في المعاني التي تدل عليها كلمتا الشهادة، وجب عليه تعلم ما يصل به إلى إزالة الشك. وإن كان في بلد قد كثرت فيه البدع، وجب عليه أن يتلقن الحق، كما لو كان تاجراً في بلد شاع فيه الربا، وجب عليه أن يتعلم الحذر منه.

وينبغي أن يتعلم الإيمان بالبعث والجنة والنار.

فبان بما ذكرنا أن المراد بطلب العلم الذي هو فرض عين: ما يتعين وجوبه على الشخص.

فأما فرض الكفاية: فهو كل علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا، كالطب إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان على الصحة، والحساب، فإنه ضروري في قسمة المواريث والوصايا وغيرها.

فهذه العلوم لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج أهل البلد، وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الباقين.

ألفاظ قد حرفت إلى معانٍ لم يردها السلف بها

واعلم: أنه قد بدلت ألفاظ وحرفت، ونقلت إلى معانٍ لم يردها السلف الصالح.

فمن ذلك: الفقه، فإنهم تصرفوا فيه بالتخصيص، فخصوه بمعرفة الفروع وعللها، ولقد كان اسم الفقه في العصر الأول منطلقاً على علم طريق الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس، ومفسدات الأعمال، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب.

ولذلك قال الحسن «البصري» رحمه الله: إنما الفقيه الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، البصير بدينه، المداوم على عبادة ربه، الورع الكاف عن أعراض المسلمين، العفيف عن أموالهم، الناصح لهم.

فكان إطلاقهم اسم الفقه على علم الآخرة أكثر، لأنه لم يكن مختصاً بالفتاوى، ولكن كان متناولاً لذلك بطريق العموم والشمول، فثار من هذا التخصيص تلبيس بعث الناس على التجرد لعلم الفتاوى الظاهرة، والإعراض عن علم المعاملة للآخرة.

اللفظ الثاني: العلم. فقد كان ذلك يطلق على العلم بالله تعالى وبآياته، أي نعمه وأفعاله في عباده، فسمُّوا المُتحّلي بهذه القصائل عالماً، ثم خصَّصوه، وسموا به في الغالب المناظر في مسائل الفقه وإن كان جاهلاً بالتفسير والأخبار.

اللفظ الثالث: التوحيد. وقد كان ذلك إشارة إلى أن ترى الأمور كلها من الله تعالى رؤيـة تقطع الالتفات إلى الأسباب والوسائط، فيثمر ذلك التوكل والرضى، وقد جعل الآن عبارة عن صناعة الكلام في الأصول، وذلك من المنكرات عند السلف.

اللفظ الرابع: التذكير والذكر. قال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: حلق الذكر»[1] فنقلوا ذلك إلى القصص وما يحتوي عليه اليوم مجلس القاص من الشطح والطامات.

اللفظ الخامس: الحكمة. والحكمة: العلم والعمل به.

قال ابن قتيبة رحمه الله: لا يكون الرجل حكيماً حتى يجمع العلم والعمل. وقد صار هذا الاسم يطلق في هذا الزمان على الطبيب والمنجم.

العلوم المحمودة والعلوم المذمومة

اعلم أن العلوم المحمودة تنقسم إلى قسمين:

الأول: محمود إلى أقصى غايته وكلما كان أكثر كان أحسن، وهو العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا، فإن هذا العلم مطلوب لذاته، والتوسل به إلى سعادة الآخرة، وهو البحر الذي لا يدرك غوره، وإنما يحوم المحومون على سواحله وأطرافه بقدرما تيسر لهم.

القسم الثاني: العلوم التي لا يحمد منها إلا مقدار مخصوص، وهي التي ذكرناها من فروض الكفايات، فإن في كل منها اقتصاراً واقتصاداً واستقصاءاً.

فكن أحد رجلين: إما مشغول بنفسك، وإما متفرغ لغيرك بعد الفراغ من نفسك.

وإياك أن تشتغل بما يصلح غيرك قبل إصلاح نفسك، واشتغل بإصلاح باطنك وتطهيره من الصفات الذميمة، كالحرص والحسد، والرياء والعجب، قبل إصلاح ظاهرك.

---

(١) رواه أحمد والترمذي وقال: حسن غريب.

عالم لم ينفعه علمه

واعلم: أن المناظرة الموضوعة لقصد المغالبة والمباهاة منبع الأخلاق المذمومة، ولا يسلم صاحبها من كبر، لاحتقار المقصرين عنه، عجبه بنفسه لارتفاعه على كثير من نظرائه، ولا يسلم من الرياء، لأن جُلَّ مقصود المناظر اليوم علم الناس بغلبته، وإطلاق ألسنتهم بشكره ومدحه، فهو يذهب عمره في العلوم التي تعين على المناظرة مما لا ينفع في الآخرة، كحسن اللفظ، وحفظ النوادر.

عن الأحوص بن حكيم رضي الله عنه عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «ألا إن شر الشر شرار العلماء، وإن خير الخير خيار العلماء»[1].

وعن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال: «إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة: عالم لا ينتفع بعلمه».[2]

آداب المتعلم وآفات العلم وبيان علماء السوء وعلماء الآخرة

آداب المتعلم:

أما المتعلم فينَبغي له تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الصفات. إذ العلم عبادة القلب.

وينبغي له قطع العلائق الشاغلة، فإن الفكرة متى توزعت قصرت عن إدراك الحقائق.

وقد كان السلف يؤثرون العلم على كل شيء، فروي عن الإمام أحمد رحمه الله: أنه لم يتزوج إلا بعد الأربعين.

---

(١) رواه الدارمي.
(٢) رواه الدارمي موقوفاً.

وعلى المتعلم أن يلقي زمامه إلى المعلم إلقاء المريض زمامه إلى الطبيب، فيتواضع له، ويبالغ في خدمته.

وقد كان ابن عباس رضي الله عنه يأخذ بركاب زيد بن ثابت رضي الله عنه ويقول: هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء.

ومتى تكبر المتعلم أن يستفيد من غير موصوف بالتقدم فهو جاهل، لأن الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها، وليدع رأيه لرأي معلمه فإن خطأ المعلم أنفع للمتعلم من صواب نفسه.

قال علي رضي الله عنه: أن من حق العالم عليك أن تسلِّم على القوم عامة، وتخصه بالتحية، وأن تجلس أمامه، ولا تشير عنده بيدك، ولا تغمزن بعينك، ولا تكثر عليه السؤال، ولا تعينه في الجواب، ولا تلح عليه إذا كسل، ولا تراجعه إذا امتنع، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض، ولا تفشي له سراً، ولا تغتابن عنده أحداً، ولا تطلبن عثرته، وإن زل قبلت معذرته، ولا تقولن له: سمعت فلاناً يقول كذا، ولا أن فلاناً يقول خلافك. ولا تصفن عنده عالماً، ولا تعرض من طول صحبته، ولا ترفع نفسك عن خدمته، وإذا عرضت له حاجة سبقت القوم إليها، فإنما هو بمنزلة النخلة تنتظر متى يسقط عليك منها شيء.

وينبغي أن يحترز الخائض في العلم في مبدإ الأمر من الإصغاء إلى اختلاف الناس، فإن ذلك يحير عقله ويفتر ذهنه.

وينبغي له أن يأخذ من كل شيء أحسنه. لأن العمر لا يتسع لجميع العلوم، ثم يصرف جمام قوته إلى أشرف العلوم، وهو العلم المتعلق بالآخرة، الذي به يكتسب اليقين.

آداب المعلم:

وأما المعلم فعليه وظائف أيضاً:

من ذلك الشفقة على المتعلمين، وأن يجريهم مجرى بنيه، ولا يطلب

على إفاضة العلم أجراً، ولا يقصد به جزاءاً ولا شكراً، بل يعلِّم لوجه الله تعالى، ولا يرى لنفسه منّة على المتعلمين، بل يرى الفضل لهم إذ هيؤوا قلوبهم لتقربه إلى الله تعالى بزراعته العلم فيها، فهم كالذي يعير الأرض لمن يزرع فيها.

فلا ينبغي أن يطلب المعلم الأجر إلا من الله تعالى. وقد كان السلف يمتنعون من قبول هدية المتعلم.

ومنها: أن لا يدخر من نصح المتعلم شيئاً، وأن يزجره عن سوء الأخلاق بطريق التعريض مهما أمكن، لا على وجه التوبيخ، فإن التوبيخ يهتك حجاب الهيبة.

ومنها: أن ينظر في فهم المتعلم ومقدار عقله، فلا يلقي إليه ما لا يدركه فهمه ولا يحيط به عقله.

وقال علي رضي الله عنه: إن ههنا علماً لو أصبت له حملته.

وقال الشافعي رحمه الله:

أأنثر دراً بين سارحة النعم أأنظم منثوراً لراعية الغنم
ومن منح الجهال علماً أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم

ومنها: أن يكون المعلم عاملاً بعلمه. ولا يكذب قوله فعله.

قال الله تعالى: ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [البقرة: ٤٤].

وقال علي رضي الله عنه: قصم ظهري رجلان: عالم متهتك، وجاهل متنسك.

آفات العلم وبيان علماء السوء وعلماء الآخرة

علماء السوء: هم الذين قصدهم من العلم التنعم بالدنيا، والتوصل إلى المنزلة عند أهلها.

وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم

أنه قال: «من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله عزّ وجلّ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا، لم يجد عرف الجنة/يوم القيامة» يعني ريحها[1].

وفي حديث آخر أنه قال: «من تعلم العلم ليباهي به العلماء. أو يماري به السفهاء، أو يصرف به وجوه الناس إليه، فهو في النار[2]»، وفي ذلك أحاديث كثيرة.

وقال بعض السلف: «أشد الناس ندامة عند الموت عالم مفرط» وذلك لما يرى من انتفاع الناس بعلمه، وخسرانه هو.

واعلم: أن المأخوذ على العالم أن يقوم بالأوامر والنواهي. وليس عليه أن يكون زاهداً ولا معرضاً عن المباحات، إلا أنه ينبغي له أن يتقلل من الدنيا مهما استطاع، إلا أنه ليس كل جسم يقبل التقلل، فإن الناس يتفاوتون فيه.

١ ـ ومن صفات علماء الآخرة: أن يكونوا منقبضين عن السلاطين، محترزين من مخالطتهم.

قال حذيفة رضي الله عنه: إياكم ومواقف الفتن. قيل: وما هي؟ قال: أبواب الأمراء، يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب، ويقول ما ليس فيه.

وقال سعيد بن المسيب رحمه الله: إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء، فاحذروا منه، فإنه لص.

وقال بعض السلف: إنك لا تصيب من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من دينك أفضل منه.

٢ ـ ومن صفات علماء الآخرة: أن لا يتسرعوا إلى الفتوى، وأن لا يفتوا إلا بما يتيقنون صحته.

وقد كان السلف يتدافعون الفتوى حتى ترجع إلى الأول.

---

(١) رواه أبو داود وابن ماجه بإسناد جيد.
(٢) رواه الترمزي.

وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى رحمه الله: أدركت في هذا المسجد مائة وعشرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ما أحد يسأل عن حديث أو فتوى إلا ود أن أخاه كفاه ذلك. ثم قد آل الأمر إلى إقدام أقوام يدّعون العلم اليوم، يقدمون على الجواب في مسائل لو عرضت لعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لجمع أهل بدر واستشارهم.

٣ ـ ومن صفاتهم: أنِ يكون أكثر بحثهم في علم الأعمال عما يفسدها ويكدر القلوب ويهيج الوساوس، فإن صور الأعمال قريبة سهلة، وإنما التعب في تصفيتها.

وأصل الدين: إلتوقي من الشر، ولا يصح أن يتوقى حتى يعرف.

٤ ـ ومن صفاتهم: البحث عن أسرار الأعمال الشرعية، والملاحظة لحكمها فإن عجز عن الاطلاع على العلة كفاه التسليم للشرع.

٥ ـ ومن صفاتهم: اتباع الصحابة وخيار التابعين، وتوقي كل محدث.

كتاب الطهارة

وأسرارها والصلاة وما يتعلق بها

اعلم: أن الطهارة لها أربع مراتب.

الأولى: تطهير الظاهر من الأحداث والأنجاس والفضلات.

والثانية: تطهير الجوارح من الذنوب والآثام.

والثالثة: تطهير القلب من الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة.

والرابعة: تطهير السر عما سوى الله تعالى، وهذه هي الغاية القصوى، فمن قويت بصيرته سمت إلى هذا المطلوب، ومن عميت بصيرته لم يفهم من مراتب الطهارة إلا المرتبة الأولى، فتراه يضيع أكثر زمانه الشريف في المبالغة في الاستنجاء وغسل الثياب، ظناً منه بحكم الوسوسة وقلة العلم أن الطهارة المطلوبة هي هذه فقط، وجهلاً بسير المتقدمين الذين كانوا يستغرقون الزمان في تطهير القلوب ويتساهلون في أمر الظاهر، كما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه توضأ من جرة نصرانية، وكانوا لا يكادون يغسلون أيديهم من الزهم[1] ويصلون على الأرض، ويمشون حفاة، ويقتصرون في الاستجمار على الأحجار.

وقد انتهى الأمر إلى قوم يسمون الرعونة[2] نظافة، فترى أكثر زمانهم يمضي في تزيين الظواهر، وبواطنهم خراب محشوة بخبائث الكبر، والعجب، والجهل، والرياء، والنفاق.

---

(١) نتن الجيف، وبقية الشحم.

(٢) الحماقة.

ولو رأوا مقتصراً في الاستجمار على الحجر، أو حافياً يمشي على الأرض، أو من يصلي عليها من غير حائل، أو متوضأ من آنية عجوز، لأنكروا عليه أشد الإنكار، ولقبوه بالقذر، واستنكفوا من مؤاكلته.

فانظر كيف جعلوا البذاذة[1] التي هي من الإيمان قذارة، والرعونة نظافة، وصيروا المنكر معروفاً والمعروف منكراً!!. لكن من قصد بهذه الطهارة النظافة ولم يسرف في الماء، ولم يعتقد أن استعمال الماء الكثير أصلُ الدين، فليس ذلك بمنكر، بل هو فعل حسن. وليرجع في معرفة الأنجاس والأحداث إلى كتب الفقه، فإن المقصود من هذا الكتاب الآداب.

فضائل الصلاة

أما الصلاة: فإنها عماد الدين، وغرة الطاعات، وقد ورد في فضائل الصلاة أخبار كثيرة مشهورة، ومن أحسن آدابها الخشوع.

وقد رَوَى مسلم عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ما من امرىء تحضره صلاة مكتوبة، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب، ما لم يأت كبيرة، وذلك الدهر كله».

وله في حديث أيضاً عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه»[2]..

عن عمار بن ياسر عن النبي ﷺ قال: «إن العبد ليصلي الصلاة لا يكتب سدسها ولا عشرها وإنما يكتب للعبد من صلاته ما عقل»[3].

واعلم: أن للصلاة أركاناً وواجبات وسنناً، وروحها: النية والإخلاص والخشوع وحضور القلب، فإن الصلاة تشتمل على أذكار ومناجاة وأفعال، ومع عدم حضور القلب لا يحصل المقصود بالأذكار والمناجاة، لأن النطق إذا لم يعرب عما في الضمير كان بمنزلة الهذيان، وكذلك لا يحصل المقصود

---

(١) رثاثة الهيئة، أراد التواضع في اللباس وترك التبجح.
(٢) رواه الشيخان.
(٣) رواه أبو داود والنسائي، وابن ماجه.

من الأفعال، لأنه إذا كان المقصود من القيام الخدمة، ومن الركوع والسجود الذل والتعظيم، ولم يكن القلب حاضراً، لم يحصل المقصود، فإن الفعل متى خرج عن مقصوده بقي صورة لا اعتبار بها.

قال الله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

والمقصود أن الواصل إلى الله سبحانه وتعالى هو الوصف الذي استولى على القلب حتى حمل على امتثال الأوامر المطلوبة، فلا بد من حضور القلب في الصلاة، ولكن سامح الشارع في غفلة تطرأ، لأن حضور القلب في أولها ينسحب حكمه على باقيها.

والمعاني التي تتم بها حياة الصلاة كثيرة.

المعنى الأول: حضور القلب، ومعناه أن يفرغ القلب من غير ما هو ملابس له وسبب ذلك الهمة، فإنه متى أهمك أمر حضر قلبك ضرورة، فلا علاج لإحضاره إلا صرف الهمة إلى الصلاة، وانصراف الهمة يقوى ويضعف بحسب قوة الإيمان بالآخرة واحتقار الدنيا، فمتى رأيت قلبك لا يحضر في الصلاة فاعلم أن سببه ضعف الإيمان فاجتهد في تقويته.

المعنى الثاني: التفهم لمعنى الكلام فإنه أمر وراء حضور القلب لأنه ربما كان القلب حاضراً مع اللفظ دون المعنى فينبغي صرف الذهن إلى إدراك المعنى بدفع الخواطر الشاغلة وقطع موادها، فإن المواد إذا لم تنقطع لم تنصرف الخواطر عنها.

المعنى الثالث: التعظيم لله والهيبة، وذلك يتولد من شيئين: معرفة جلال الله تعالى وعظمته، ومعرفة حقارة النفس، وأنها مستعبدة فيتولد من المعرفتين الاستكانة والخضوع.

واعلم: أن أداء الصلاة بهذه الشروط الباطنة سبب لجلاء القلب من الصدأ وحصول الأنوار فيه التي بها تتلمح عظمة المعبود وتطلع على أسراره وما يعقلها إلا العالمون فأما من قام بصورة الصلاة دون معانيها فإنه لا يطلع على شيء من ذلك، بل ينكر وجوده.

آداب تتعلق بصلاة الجمعة ويوم الجمعة

وهي كثيرة: **أحدها**: أن يستعد لها بالتنظيف وغسل الثياب.

الثاني: الاغتسال في يومها والأفضل أن يكون قبيل الرواح إليها.

الثالث: التزين بتنظيف البدن، وقص الأظفار، والسواك، ويتطيب ويلبس أحسن ثيابه.

الرابع: التبكير إليها ماشياً، وينبغي للساعي إلى الجامع أن يمشي بسكون وخشوع.

الخامس: أن لا يتخطى رقاب الناس، ولا يفرق بين اثنين إلا أن يرى فرجة فيتخطى إليها.

السادس: أن لا يمر بين يدي المصلي.

السابع: أن يطلب الصف الأول.

الثامن: أن يصلي السنّة بعد الجمعة.

التاسع: أن يراقب الساعة الشريفة التي في يوم الجمعة بإحضار القلب، وملازمة الذكر، واختلف في هذه الساعة، ففي أفراد مسلم من حديث أبي موسى رضي الله عنه أنها ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تقضى الصلاة.

العاشر: أن يكثر من الصلاة على النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم في هذا اليوم.

الحادي عشر: أن يقرأ سورة الكهف، فقد جاء في الحديث «أن من قرأها في يوم الجمعة أو ليلة الجمعة وقي الفتنة». أي فتنة القبر.

ويستحب أن يكثر من قراءة القرآن في يوم الجمعة، وأن يختم فيه أو في ليلته إن قدر.

الثاني عشر: أن يتصدق في يوم الجمعة بما أمكن، ولتكن صدقته خارج المسجد.

الثالث عشر: يستحب أن يجعل يوم الجمعة لأعمال الآخرة، ويكف عن جميع أشغال الدنيا.

كتاب الزكاة

دقائق الآداب الباطنة في الزكاة

اعلم: أن على مريد الآخرة في زكاته وظائف:

الأولى: أن يفهم المراد من الزكاة، وهو ثلاثة أشياء: ابتلاء مدعي محبة الله تعالى بإخراج محبوبه، التنزه عن صفة البخل المهلك، وشكر نعمة المال.

الوظيفة الثانية: الإسرار بإخراجها لكونه أبعد من الرياء والسمعة، وفي الإظهار إذلال للفقير أيضاً، فإن خاف أن يتهم بعدم الإخراج أعطى من لا يبالي من الفقراء بالأخذ بين الجماعة علانية، وأعطى غيره سراً.

الوظيفة الثالثة: أن لا يفسدها بالمنّ والأذى، وذلك أن الإنسان إذا رأى نفسه محسناً إلى الفقير، منعماً بالإعطاء، ربما حصل منه ذلك، ولو حقق النظر لرأي الفقير محسناً إليه بقبول حق الله الذي هو طهرة له.

وإذا استحضر مع ذلك أن إخراجه للزكاة شكر لنعمة المال، فلا يبقى بينه وبين الفقير معاملة. ولا ينبغي أن يحتقر الفقير لفقره، لأن الفضل ليس بالمال ولا النقص بعدمه.

الوظيفة الرابعة: أن يستصغر العطية، فإن المستعظم للفعل معجب به. وقد قيل: لا يتم المعروف إلا بثلاث بتصغيره، وتعجيله، وستره.

الوظيفة الخامسة: أن ينتقي من ماله أحله وأجوده وأحبه إليه، أما الحل، فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً. وأما الأجود، فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

وينبغي أن يلاحظ في ذلك أمرين: **أحدهما**: حق الله سبحانه وتعالى بالتعظيم له، فإنه أحق من اختير له، ولو أن الإنسان قدم إلى ضيفه طعاماً رديئاً لأوغر صدره.

والثاني: حق نفسه، فإن الذي يقدمه هو الذي يلقاه غداً في القيامة، فينبغي أن يختار الأجود لنفسه.

وأما أحبه إليه، فلقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

صدقة التطوع وفضلها وآدابها

أما فضائل الصدقة فهي كثيرة مشهورة:

منها: ما روى البخاري من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أيكم مال وراثه أحب إليه من ماله؟ قالوا: يا رسول الله ما منا أحد إلا ماله أحب إليه، قال: فإن ماله ما قدم، ومال وارثه ما أخر».

وفي «الصحيحين» من رواية أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من تصدق بعدل[1] تمرة من كسب طيب ـ ولا يصعد إلى الله إلا الطيب ـ فإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه[2] حتى تكون مثل الجبل».

وعن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وصدقة السر تطفىء غضب الرب»[3].

وعن بريدة رضي الله عنه قال: قال: رسول الله صلى الله تعالى عليه

---

(١) أي بمثل.
(٢) هو المهر الصغير، وقيل: الصغير من أولاد ذوات الحافر.
(٣) رواه الطبراني، وهو صحيح.

وآله وسلم: «ما يخرج أحد شيئاً من الصدقة حتى يفك عنها لَحى سبعين شيطاناً»[١].

وفي أفراد مسلم، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ما نقصت صدقة من مال».

ورُوِيَ عن عائشة رضي الله عنها: أنهم ذبحوا شاة، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ما بقي منها؟» فقالت: ما بقي منها إلا كتفها. فقال: بقي كلها إلا كتفها»[٢].

وأما آدابها، فنحو ما تقدم في الزكاة.

واختلفوا: أيهما أفضل للفقير، أن يأخذ من الزكاة. أو من الصدقة؟ فقال قوم: من الزكاة أفضل، وقال آخرون: من الصدقة أفضل.

وأما أفضل الصدقة فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أي الصدقة أفضل؟ قال: «أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر، وتأمل الغنى، ولا تهمل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا. ولفلان كذا، وقد كان لفلان»[٣].

---

(١) رواه أحمد والحاكم وابن خزيمة وهو صحيح.
(٢) رواه الترمذي وصححه.
(٣) أخرجاه في الصحيحين.

كتاب الصوم

وأسراره ومهماته وما يتعلق به

اعلم: أن في الصوم خصيصة ليست في غيره، وهي إضافته إلى الله عزّ وجلّ حيث يقول سبحانه[1]: «الصوم لي وأنا أجزي به»، وكفى بهذه الإضافة شرفاً، كما شرف البيت بإضافته إليه في قوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [الحج: ٢٦]. وإنما فضل الصوم لمعنيين:

أحدهما: أنه سر وعمل باطن، لا يراه الخلق ولا يدخله رياء.

الثاني: أنه قهر لعدو الله، لأن وسيلة العدو الشهوات، وإنما تقوى الشهوات بالأكل والشرب، وما دامت أرض الشهوات مخصبة، فالشياطين يترددون إلى ذلك المرعى، وبترك الشهوات تضيق عليهم المسالك. وفي الصوم أخبار كثيرة تدل على فضله وهي مشهورة.

سنن الصوم

يستحب السحور، وتأخيره، وتعجيل الفطر، وأن يفطر على التمر.

ويستحب الجود في رمضان، وفعل المعروف، وكثرة الصدقة، اقتداء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ويستحب دراسة القران، والاعتكاف في رمضان: لا سيما في العشر الأواخر، وزيادة الاجتهاد فيه.

---

(١) أي في الحديث القدسي وهو متفق عليه.

وفي «الصحيحين» من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا دخل العشر [يعني الأخير]، شد مئزره، وأحيا الليل، وأيقظ أهله.

وذكر العلماء في معنى شد المئزر وجهين:

أحدهما: أنه الإعراض عن النساء.

الثاني: أنه كناية عن الجد والتشمير في العمل. قالوا: وكان سبب اجتهاده في العشر طلب ليلة القدر.

أسرار الصوم وآدابه

وللصوم ثلاثة مراتب صوم العموم. وصوم الخصوص. وصوم خصوص الخصوص.

فأما صوم العموم: فهو كف البطن والفرج عن قصد الشهوة.

وأما صوم الخصوص: فهو كف اللسان، واليد، والرجل، والسمع، والبصر، وسائر الجوارح عن الآثام.

وأما صوم خصوص الخصوص: فهو صوم القلب عن الهمم الدنيئة، والأفكار المبعدة عن الله تعالى، وكفه عما سوى الله تعالى بالكلية.

فمن آداب صوم الخصوص: غض البصر، وحفظ اللسان عما يؤذي من كلام محرم أو مكروه، أو ما لا يفيد، وحراسة باقي الجوارح.

وفي الحديث من رواية البخاري، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه».

ومن آدابه: أن لا يملأ بطنه من الطعام في الليل، بل يأكل بمقدار، فإنه ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطن. ومتى شبع أول الليل لم ينتفع بنفسه في

باقيه، وكذلك إذا شبع وقت السحر لم ينتفع بنفسه إلى قريب من الظهر، لأن كثرة الأكل تورث الكسل والفتور، ثم يفوت المقصود من الصيام بكثرة الأكل، لأن المراد منه: أن يذوق طعم الجوع، ويكون تاركاً للمشتهى.

صوم التطوع

فأما صوم التطوع، فاعلم أن استحباب الصوم يتأكد في الأيام الفاضلة، وفواضل الأيام بعضها يوجد في كل سنة، كصيام ستة أيام من شوال بعد رمضان، وكصيام يوم عرفة، ويوم عاشوراء، وعشر ذي الحجة، والمحرم.

وبعضها يتكرر في كل شهر كالأيام البيض الثلاثة.

وبعضها يتكرر في كل أسبوع وهو يوم الإثنين ويوم الخميس.

وأفضل صوم التطوع صوم داود عليه السلام. كان يصوم يوماً ويفطر يوماً.

كتاب آداب القرآن الكريم وذكر فضله

أعظم فضائل القرآن الكريم أنه كلام الله عزّ وجلّ، وقد مدحه الله تعالى في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ٩٢] ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢].

وفي أفراد البخاري، من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه».

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن لله عزّ وجلّ أهلين من الناس، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: أهل القرآن هم أهل الله وخاصته»(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يقال لصاحب القرآن: إقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»(٢).

قال ابن مسعود رضي الله عنه: ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذ الناس نائمون، وبنهاره إذ الناس مفطرون، وبحزنه إذ الناس يفرحون، وببكائه إذ الناس يضحكون، وبصمته إذ الناس يخوضون، وبخشوعه إذ الناس يختالون.

ولا ينبغي أن يكون جافياً ولا غافلاً ولا صخاباً ولا حديداً(٣).

---

(١) رواه النسائي.
(٢) رواه الترمذي وصححه.
(٣) أي: شديد الغضب.

آداب التلاوة

ينبغي لقارىء القرآن: أن يكون على وضوء، مستعملاً للأدب، مطرقاً غير متربع ولا متكىء، ولا جالس على هيئة المتكبر.

وأفضل الأحوال: أن يقرأ في الصلاة قائماً، وأن يكون في المسجد.

فأما مقدار القراءة، فقد اختلفت فيها عادات السلف: فمنهم من كان يختم كل يوم وليلة ختمة، ومنهم من كان يختم في اليوم والليلة أكثر من ذلك، ومنهم من كان يختم في كل ثلاث ختمة، ومنهم من كان يختم في كل أسبوع، ومنهم من كان يختم في كل شهر، اشتغالاً بالتدبر أو بنشر العلم، أو بتعليمه، أو بنوع من التعبد غير القراءة، أو بغيره من اكتساب الدنيا.

وأولى الأمر: ما لا يمنع الإنسان من أشغاله المهمة، ولا يؤذيه في بدنه، ولا يفوته معه الترتيل والفهم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لأن أقرأ البقرة وآل عمران، وأرتلهما وأتدبرهما أحب إليّ من أن أقرأ القرآن كله هذرمة[1].

ومن وجد خلسة في وقت، فليغتنم كثرة القراءة ليفوز بكثرة الثواب، فقد كان عثمان رضي الله عنه يقرأ القرآن في ركعة يوتر بها، وكان الشافعي رحمه الله يختم في رمضان ستين ختمة.

وأما الدوام: فليكن على قدر الإمكان، كما أشرنا إليه.

واستحب بعضهم: إذا ختم بالنهار أن يختم في ركعتي الفجر أو بعدهما، وإذا ختم بالليل أن يختم في ركعتي المغرب أو بعدهما ليستقبل بالختمة أول الليل وأول النهار.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: من ختم القران فله دعوة مستجابة.

وكان أنس رضي الله عنه إذا ختم القرآن جمع أهله ودعا.

---

(١) الهذرمة: السرعة في القراءة والكلام.

ويستحب تحسين القراءة، وإذا لم يكن حسن الصوت حسنه ما استطاع، فأما القراءة بالألحان، فقد كرهها السلف.

ويستحب الأسرار بالقراءة لما في الحديث الصحيح الذي أخرجه أبو داود والترمذي عن عقبة بن عامر «الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة» إلاّ أنه ينبغي أن يسمع نفسه.

ولا بأس بالجهر في بعض الأوقات لمقصود صحيح، إما لتجويد الحفظ، أو ليصرف عن نفسه الكسل والنوم، أو ليوقظ الوسنان.

فأما حكم القراءة في الصلاة، ومقدار ما يقرأ في صلاة الفرض، وموضع الجهر والإسرار فذلك معروف مشهور في كتب الفقه.

ومن كان عنده مصحف ينبغي له أن يقرأ فيه كل يوم ولو آيات يسيرة لئلا يكون مهجوراً.

وينبغي لتالي القرآن العظيم أن ينظر كيف لطف الله تعالى بخلقه في إيصال معاني كلامه إلى أفهامهم، وأن يعلم أن ما يقرأه ليس من كلام البشر، وأن يستحضر عظمة المتكلم سبحانه ويتدبر كلامه، فإن التدبر هو المقصود من القراءة، وإن لم يحصل التدبر إلا بترداد الآية، فليرددها، فقد روى أبو ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قام ليلة بآية يرددها ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨].

وقام تميم الداري رضي الله عنه بآية وهي قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ] [الجاثية: ٢١] وكذلك قام بها الربيع بن خيثم رحمة الله عليه ليلة.

وينبغي للتالي أن يستوضح من كل آية ما يليق بها، ويتفهم ذلك، فإذا تلا قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١] فليعلم عظمته ويتلمح قدرته في كل ما يراه.

وإذا تلا: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨] فليتفكر في نطفة متشابهة

الأجزاء، كيف تنقسم إلى لحم وعظم، وعرق وعصب، وأشكال مختلفة من رأس ويد، ورجل، ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات الشريفة كالسمع، والبصر، والعقل، وغير ذلك، فيتأمل هذه العجائب.

وإذا تلا أحوال المكذبين فليستشعر الخوف من السطوة إن غفل عن امتثال الأمر.

أقول: قال النووي: ويسن لكل من قرأ في الصلاة أو غيرها إذا مرّ بآية رحمة أن يسأل الله. تعالى من فضله، وإذا مر بآية عذاب أن يستعيذ به من النار، أو من العذاب أو من الشر، أو من المكروه، أو يقول: اللهم إني أسألك العافية، أو نحو ذلك، وإذا مر بآية تنزيه لله سبحانه وتعالى نزه، فقال: سبحان الله وتعالى، أو تبارك الله رب العالمين، أو جلت عظمة ربنا، أو نحو ذلك...

ويستحب لكل من قرأ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨] أن يقول: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين وإذا قرأ ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٤٠] قال: بلى أشهد، وإذا قرأ ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥] قال: آمنت بالله، وإذا قرأ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] قال: سبحان ربي الأعلى، ويقول هذا كله في الصلاة وغيرها، وقد بينت أدلته في كتاب «التبيان في آداب حملة القرآن». انتهى.

وليتخلى التالي عن موانع الفهم، مثل أن يخيل الشيطان إليه أنه ما حقق تلاوة الحروف، ولا أخرجها من مخرجها فيكررها التالي، فيصرف همته عن فهم المعنى.

ومن الموانع: أن يكون التالي مصراً على ذنب، أو متصفاً بكبر، أو مبتلى بهوى مطاع، فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصدائه.

وينبغي لتالي القرآن أن يعلم أنه مقصود بخطاب القرآن ووعيده وأن القصص لم يرد بها السمر بل العبر، فليتنبه لذلك.

كتاب الأذكار والدعوات وغيرها

اعلم: أنه ليس بعد تلاوة القرآن عبادة تؤدى باللسان أفضل من ذكر الله سبحانه وتعالى، ورفع الحوائج بالأدعية الخالصة إليه تعالى، ويدل على فضل الذكر قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾[(١)] [آل عمران: ١٩٠] وقوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر مثل الحي والميت»[(٢)].

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إن الله عزّ وجلّ يقول: أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه»[(٣)].

وفي أفراد مسلم عنه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه قال: «لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم

---

(١) قال ابن الجوزي في تفسير «زاد المسير» ١/ ٥٢٧ طبعة المكتب الإسلامي بدمشق: قوله تعالى: ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾ في هذا الذكر ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه الذكر في الصلاة يصلي قائماً، فإن لم يستطع فقاعداً، فإن لم يستطع فعلى جنب، هذا قول علي وابن مسعود وابن عباس وقتادة.

الثاني: أنه الذكر في الصلاة وغيرها، وهو قول طائفة من المفسرين.

الثالث: أنه الخوف، فالمعنى يخافون الله قياماً في تصرفهم، وقعوداً في دعتهم، وعلى جنوبهم في منامهم. وتبين من هذا أن الآية ليس فيها مستدل لمن يجوز الرقص في حلقات الذكر.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه الحاكم من حديث أبي الدرداء، وقال: صحيح الإسناد ورواه البخاري وأحمد.

السكينة[1]، وذكرهم الله فيمن عنده»[2]، وفي ذلك أحاديث كثيرة مذكورة في فضائل الأعمال.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ما جلس قوم مجلساً فتفرقوا على غير ذكر الله عزّ وجلّ، إلا تفرقوا عن مثل جيفة الحمار، وكان ذلك المجلس عليهم حسرة يوم القيامة[3].

فضيلة الدعاء

وأما فضيلة الدعاء: فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه. عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ليس شيء أكرم على الله عزّ وجلّ من الدعاء» و «أشرف العبادة الدعاء»[4]، و «من لا يسأل الله يغضب عليه[5].

وللدُّعاء آداب من ذلك أن يتحرى الأوقات الشريفة، كيوم عرفة من السنة، ورمضان من الشهور، والجمعة من الأسبوع، والسحر من الليل.

ومن الأوقات الشريفة: بين الأذان والإقامة، وعقيب الصلوات، وعند نزول الغيث، وعند القتال في سبيل الله، وعند ختم القرآن، وفي السجود، وعند الإفطار، وعند حضور القلب ووجله.

وعلى الحقيقة فإن شرف الأوقات يرجع إلى شرف الحالات، فإن وقت السحر وقت صفاء القلب وفراغه، وحالة السجود حالة الذل.

ومن آداب الدعاء أن يدعو مستقبل القبلة ويرفع يديه ثم يمسح بهما وجهه، وأن يخفض صوته حال الدعاء.

ومن آدابه: أن يبدأ بذكر الله عزّ وجلّ، ثم يصلي على النبي صلى الله

---

(١) السكينة: الوقار.
(٢) يعني الملائكة المقربين، والمراد من العندية: الرتبة.
(٣) رواه أحمد وأبو داود
(٤) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد (٧١٣) ورجاله ثقات، إلا أن فيه عنعنة الحسن.
(٥) رواه الترمذي.

تعالى عليه وآله وسلم، ولا يتكلف السجع في الدعاء.

ومن آدابه: وهو الأدب الباطن ـ وهو الأصل في الإجابة ـ التوبة وردّ المظالم.

أقول ومما ينبغي التنبيه عليه في هذا المقام أن من عادة الصالحين من عباد الله تعالى من الصحابة فمن بعدهم من التابعين لهم بإحسان من العلماء العاملين والمربين الربانيين أن يتخذوا لأنفسهم ورداً يومياً من الأذكار وتلاوة القرآن يعتنون به ويواظبون عليه يتقربون به إلى ربهم، ويزكون به أنفسهم ويغذّون أرواحهم ويصححون نياتهم ويخلصون به العمل لخالقهم والمواظبة على الأذكار والأوراد هي الوسيلة لنجاح الداعية في دعوته والمربي في تربيته ولم يثبت في التاريخ أن نجح داعية في دعوته ولا مربٍ في تربيته إلا أن يكون من أهل المواظبة على الأذكار والأوراد، وذلك لأنها هي التي تورثه الصدق والإخلاص لله في أعماله ودعوته وتنقذه من دسائس النفس وحظوظها فمن أجل ذلك كان من أهم ما يعتني به قاصد طريق الله والداعي إلى سبيل الله أن يتخذ لنفسه ورداً يومياً يعتني به ويواظب عليه حتى يحصل على الصدق والإخلاص لله ويتخلى عن حظوظ النفس وشهوتها الخفية.

وأولى ما يوظفه المسلم على نفسه من الأعمال اللسانية بعد تلاوة كتاب الله تعالى بتدبر ومهابة وتخشع هي الأذكار الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الأذكار المطلقة والخاصة بالأوقات والأحوال والمناسبات فإنه بالمواظبة عليها يعد من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات كما قاله العلماء ومن أجود الكتب المؤلفة فيها كتاب «الأذكار» للإمام النووي رحمه الله تعالى، فإنه حلية الأبرار وشعار الأخيار، ولأمر ما قالوا «بع الدار واشتر الأذكار».

فمن أجل ما قلناه عقد المؤلفون لكتب التربية والأخلاق باباً فيها للأوراد والأذكار ومنهم مؤلف أصل هذا المختصر الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى.

وقد اقتفينا في هذا المختصر أثرهم؛ لكن على منهج يتناسب مع اختصاره فقلنا:

الأوراد

ورد ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس

ما بين طلوع الفجر الثاني إلى طلوع الشمس وقت شريف، وقد أقسم الله تعالى به فقال: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٨].

فينبغي للمريد إذا انتبه من النوم أن يذكر الله سبحانه وتعالى فيقول: «الحمد الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور». روي ذلك عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أفراد البخاري.

وفي أفراد مسلم، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه تعالى وآله وسلم إِذا أمسى قال: «أمسينا وأمسى الملك لله، والحمد لله، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيءٍ قدير، رب أسألك خير ما في هذه الليلة وخير ما بعدها، وأعوذ بك من شر هذه الليلة وشر ما بعدها، رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر، رب أعوذ بك من عذاب في النار وعذاب في القبر» ويقول: «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق»[١].

وإذا أصبح قال ذلك أيضاً: «أصبحنا وأصبح الملك لله...» إلى آخره، ويقول: «بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم» ثلاث مرات.

عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما من عبد يقولها في صباح كل يوم ومساء كل ليلة ثلاث مرات لم يضره شيء»[٢].

ويقول: «رضيت بالله ربا وبالإسلام ديناً ومحمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم نبياً ورسولاً» ثلاثاً[٣].

---

(١) رواه مسلم وابن السني وزاد: «من قالها ثلاثاً لم يضره شيء».
(٢) رواه أبو داود والترمذي وقال: حسن غريب صحيح.
(٣) رواه أبو داود والنسائي بأسانيد جيدة.

فإذا صلى الفجر قال وهو ثان رجله قبل أن يتكلم: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيـي ويميت، وهو على كل شيءٍ قدير» عشر مرات فمن قالها يكون يومه في حِرْزٍ من كل مكروه وحُرِسَ من الشيطان[1].

ويذكر سيد الاستغفار: «اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك[2] بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»[3].

ويقول: «أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وملة أبينا إبراهيم حنيفاً[4] مسلماً، وما كان من المشركين»[5].

ويدعو «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر»[6].

ويدعو بدعاء أبي الدرداء: «اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، عليك توكلت، وأنت رب العرش العظيم، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، أعلم أن الله على كل شيءٍ قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً. اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، إن ربي على صراط مستقيم»[7].

---

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن، وفي بعض النسخ صحيح.
(٢) أي: اعترف.
(٣) روى البخاري عن شداد بن أوس عن النبي ﷺ قال: «إذا قال ذلك حين يمسي فمات دخل الجنة، أو كان من أهل الجنة، وإذا قال حين يصبح فمات من يومه مثله».
(٤) أي مائلاً عن جميع الأديان إلى الإسلام.
(٥) رواه ابن السني بإسناد صحيح.
(٦) رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة.
(٧) قال أبو الدرداء: من قالها أول نهاره لم تصبه مصيبة حتى يمسي، ومن قالها آخر =

فهذه الأدعية لا يستغني المريد عن حفظها.

وينبغي له قبل خروجه إلى صلاة الفجر أن يصلي السنّة في منزله ثم يخرج متوجهاً إلى المسجد ويقول: «اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك، وبحق ممشاي هذا، فإني لم أخرج أشراً[1] لا بطراً، ولا رياءً ولا سمعة، خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك، أسألك أن تنقذني من النار، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»[2].

فإذا دخل المسجد فليقل ما روى مسلم في «صحيحه» أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا دخل أحدكم المسجد فليسلم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم ليقل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج فليقل: اللهم إني أسألك من فضلك»، ثم يطلب الصف الأول منتظراً للجماعة داعياً بنحو ما تقدم من الأذكار والأدعية، فإذا صلى الفجر أستحب أن يمكث في مكانه إلى طلوع الشمس، فقد روى أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من صلى الفجر في جماعة، ثم قعد يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس، ثم صلى ركعتين كانت له أجر حجة وعمرة تامة تامة»[3].

ولتكن وظائف وقته أربعاً: الدعاء، والذكر، والقراءة، والفكر.

وروى البغوي في «شرح السنّة» عن علقمة بن قيس قال: بلغنا أن الأرض تعج إلى الله تعالى من نومة العالم بعد صلاة الصبح.

وينبغي أن يداوم على الأوراد، لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

= النهار لم تصبه مصيبة حتى يصبح. رواه ابن السني.

(١) أي: مَرِحاً.

(٢) رواه ابن ماجه (٧٧٨) وأحمد في المسند ٣/ ٢١ من حديث أبي سعيد الخدري. وفي سنده عطية بن سعد العوفي. قال ابن حجر في تهذيب التهذيب: وكان ثقة إن شاء الله، وله أحاديث صالحة، ومن الناس من لا يحتج به.

(٣) رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

«أحب العمل إلى الله تعالى أدومه وإن قل»[1]. وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم عمله ديمة[2].

قيام الليل وفضله
والأسباب الميسرة لقيامه ونحو ذلك

قال الله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦].

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم، وهو قربة إلى ربكم، ومغفرة للسيئات، ومنهاة عن الإثم»[3] وفي فضله أحاديث كثيرة.

وقال الحسن البصري رحمه الله: لم أجد من العبادة شيئاً أشد من الصلاة في جوف الليل، فقيل له: ما بال المتهجدين أحسن الناس وجوهاً؟ فقال: لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم من نوره.

الأسباب الميسرة لقيام الليل

إعلم: أن قيام الليل صعب إلا على من وفق للقيام بشروطه الميسرة له.

فمن الأسباب ظاهر، ومنها باطن.

فأما الظاهر: فأن لا يكثر الأكل، كان بعضهم يقول: يا معشر المريدين، لا تأكلوا كثيراً، فتشربوا كثيراً، فتناموا كثيراً، فتخسروا كثيراً.

ومنها: أن لا يتعب نفسه بالنهار بالأعمال الشاقة.

ومنها: أن لا يترك القيلولة بالنهار، فإنها تعين على قيام الليل.

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم عن عائشة.

(٣) رواه الطبراني والبيهقي عن أبي أمامة بسند حسن.

ومنها: أن يجتنب الأوزار.

قال الثوري: حرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنب أذنبته.

وأما الميسرات الباطنة:

فمنها: سلامة القلب للمسلمين، وخلوه من البدع، وإعراضه عن فضول الدنيا.

ومنها: خوف غالب يلزم القلب مع قصر الأمل.

ومنها: أن يعرف فضل قيام الليل.

ومن أشرف البواعث على ذلك حب الله تعالى وقوة الإيمان بأنه إذا قام ناجى ربه، وأنه حاضره ومشاهده، فتحمله المناجاة على طول القيام.

أوراد الليل

الورد الأول: إذا غربت الشمس إلى وقت العشاء، فإذا غربت صلى المغرب واشتغل بإحياء ما بين العشاءين، فقد روي عن أنس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦]. أن هذه الآية نزلت في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كانوا يصلون بين المغرب والعشاء(١).

الورد الثاني: من غياب الشفق الأحمر إلى وقت النوم، يستحب أن صلي بين الأذانين ما أمكنه، وليكن في قراءته: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ ۝٢﴾ [السجدة: ١، ٢] و ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾ [تبارك: ١]. فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا ينام حتى يقرأهما(٢).

الورد الثالث: الوتر قبل النوم، إلا من كان عادته القيام بالليل، فإن تأخيره في حقه أفضل.

---

(١) أخرجه ابن مردويه عن أنس قال العراقي: وإسناده جيد.

(٢) أخرجه الترمذي عن جابر وأخرجه أيضاً أحمد والبخاري في الأدب المفرد والحاكم وقال صحيح.

قالت عائشة رضي الله عنها: قد أوتر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، من أول الليل، وأوسطه، وآخره، فانتهى وتره إلى السحر. متفق عليه، ثم ليقل بعد الوتر: «سبحان الملك القدوس» ثلاث مرات يمد بها صوته[1].

الورد الرابع: النوم، وإنما عددناه من الأوراد، لأنه إذا روعيت آدابه وحسن المقصود به احتسب عبادة، وقد قال معاذ رضي الله عنه: إني لأحتسب في نومتي كما أحتسب في قومتي.

من آداب النوم

١ ـ ومن آدابه: أن يتوب قبل نومه لأنه ربما مات في نومه.

٢ ـ ومنها: أن لا يبيت من له شيء يوصي به إلا ووصيته مكتوبة عنده، وفي «الصحيحين» من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ما حق امرىء مسلم له شيء يوصي فيه، يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده».

٣ ـ ومن آدابه: أن يستقبل القبلة وأن يدعو بما ورد من الدعوات في ذلك الوقت، وأن ينام على طهارة وعلى جنبه الأيمن، وينفض فراشه فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفضه بداخلة إزاره، فإنه لا يدري ما حدث بعده»[2].

فإذا وضع جنبه فليقل: «باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فاغفر لها، وإن أرسلتها فاحفظها[3] بما تحفظ به عبادك الصالحين» أخرجاه في «الصحيحين».

---

(١) قال النووي رويناه بالإسناد الصحيح في سنن أبي داود والنسائي وغيرهما وفي رواية النسائي وابن السني زيادة ثلاث مرات، انتهى. وزاد ابن أبي شيبة «يُمد بها صوته».

(٢) متفق عليه.

(٣) هذه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها. فيُمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى﴾.

وفي «الصحيحين» أيضاً، من حديث عائشة، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة، جمع كفيه ثم نفخ فيهما وقرأ فيهما ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ثم مسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات.

وفيهما من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا أتيت مضجعك، فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل اللهم أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت، فإنك إن مت في ليلتك مت على الفطرة، وإن أصبحت أصبت خيراً».

وعن علي رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال له ولفاطمة: «إذا أخذتما مضاجعكما أو أويتما إلى فراشكما، فسبحا الله ثلاثاً وثلاثين، واحمداه ثلاثاً وثلاثين، وكبراه أربعاً وثلاثين، فهو خير لكما من خادم»[1].

وحديث أبي هريرة في حفظ زكاة رمضان مشهور، وفيه أن شيطاناً قال له: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان. فأخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «أما إنه قد صدقك وهو كذوب»[2].

وفي أفراد مسلم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا أوى إلى فراشه قال: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا، وكفانا وآوانا، فكم ممن لا كافي له ولا مُؤوي».

---

(١) متفق عليه.
(٢) رواه البخاري عن أبي هريرة.

فإذا استيقظ للتهجد، فليدع بدعاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم ربنا لك الحمد، أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت». وفي رواية: «وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم، وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت»[1].

وليجتهد أن يكون آخر كلامه عند النوم ذكر الله تعالى، وأول ما يجري على لسانه عند التيقظ ذكر الله تعالى، فهاتان علامتان على الإيمان.

الورد الخامس: من أوراد الليل: يدخل بمضي النصف الأول إلى أن يبقى من الليل سدسه، وذلك وقت شريف.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: أي الصلاة أفضل؟ قال: «الصلاة في جوف الليل»[2].

وعن عمرو بن عبسة رضي الله تعالى عنه أنه سمع النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل الأخير فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله تعالى في تلك الساعة فكن»[3].

فإذا قام إلى التهجد، قرأ العشر آيات من آخر سورة: ﴿آل عمران﴾، كما روي في «الصحيحين» أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فعل ذلك، وليدع بما سبق من دعائه صلى الله عليه وآله وسلم عند قيامه من الليل، ثم يستفتح صلاته بركعتين خفيفتين، لما روى أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إذا قام أحدكم يصلي بالليل، فليبدأ

---

(١) متفق عليه.
(٢) رواه الجماعة إلا البخاري..
(٣) رواه الترمذي وابن خزيمة وصححاه.

بركعتين خفيفتين»[1]، ثم يصلي مثنى مثنى، وأكثر ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يصلي من الليل ثلاث عشرة ركعة مع الوتر، وأقلهن سبع.

الورد السادس من الليل: السدس الأخير وهو وقت السحر، قال الله تعالى: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨] فإذا فرغ من صلاة السحر فليستغفر الله تعالى ويقرأ ما تيسر من القرآن، فقد روى مسلم عن سلمة بن شبيب رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم «أن قراءة الرجل آخر الليل محضورة».

---

(١) رواه مسلم.

الربع الثاني من الكتاب ربع العادات

آداب الأكل
والاجتماع عليه والضيافة ونحو ذلك

وآداب الأكل: منها ما هو قبله، ومنها ما هو مع الأكل، ومنها ما هو بعد الأكل.

فمن **القسم الأول**: غسل اليدين قبل الأكل، كما ورد في الحديث[1]، لأنها لا تخلو من درن، ومن ذلك أن يوضع الطعام على السفرة الموضوعة على الأرض، فإنه أقرب إلى فعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من رفعه على المائدة، وهو أدنى إلى التواضع، ومن ذلك أن يجلس الجلسة على السفرة، فينصب رجله اليمنى، ويعتمد على اليسرى، وينوي بأكله أن يتقوى على طاعة الله تعالى ليكون مطيعاً بالأكل، ولا يقصد به التنعم فقط، وعلامة صحة هذه النية أخذ البلغة دون الشبع.

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطن، حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه وثلث لِنَفَسِهِ»[2].

ومن ضرورة هذه النية: أن لا يمد يده إلى الطعام إلا وهو جائع، وأن يرفع يده قبل الشبع، ومن فعل ذلك لم يكد يحتاج إلى طبيب.

ومن ذلك: أن يرضى بالموجود من الرزق، ولا يحتقر اليسير منه، وأن يجتهد في تكثير الأيدي على الطعام ولو من أهله وولده.

---

(١) الوضوء قبل الطعام وبعده مما ينفي الفقر أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس وأخرج بنحوه أبو داود والترمذي من حديث سلمان وكلها ضعيفة.

(٢) أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح.

القسم الثاني: في الآداب حالة الأكل: وهو أن يبدأ ببسم الله في أوله، ويحمد الله تعالى في آخره.

ومن ذلك: أن يأكل باليمنى ويصغّر اللقمة ويجود مضغها، وأن لا يمد يده إلى أخرى حتى يبتلع الأولى، ولا يذم مأكولاً.

ومن ذلك: أن يأكل مما يليه، إلا أن يكون الطعام متنوعاً كالفاكهة، وليأكل بثلاث أصابع، وإذا وقعت لقمة أخذها.

ومن ذلك: أن لا ينفخ في الطعام الحار، ولا يجمع بين التمر والنوى في طبق واحد، ولا يجمعه في كفه، بل يضعه من فيه على ظهر كفه ثم يلقيه، وكذا كل ماله عجم وثفل[1]، ولا يشرب الماء في أثناء الطعام، فإنه أجود في باب الطب.

ومن آداب الشرب: أن يتناول الإناء بيمينه، وينظر فيه قبل الشرب، ويمص مصاً لا عباً، فقد روي عن علي رضي الله عنه: «مصوا الماء مصاً ولا تعبوه عبّاً، فإن الكباد من العب»[2].

ولا يشرب قائماً، ويتنفس في شربه ثلاثاً.

ففي «الصحيحين»: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يتنفس في الإناء ثلاثاً والمعنى يتنفس في شربه في الإناء، بأن يباعد الإناء عنه ويتنفس، لا أن يكون النفس في الإناء.

القسم الثالث: من آداب الأكل ما يستحب بعد الطعام، وهو: أن يمسك قبل الشبع ويلعق أصابعه، وأن يسلت[3] القصعة، وليحمد الله، ففي الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إن الله ليرضى عن العبد

---

(١) والثفلُ: ما يتبقى من المادة بعد عصرها. والعجم: واحدته: عجمة، وهي نوى كل شيء كالزبيب والرمان والبلح.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان والديلمي في مسند الفردوس وقال الألباني ضعيف.

(٣) أي يتبع ما بقي منها من الطعام ويمسحها.

أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها»[1]، ويغسل يديه من الغمر[2].

ما يزيد من الآداب
بسبب الاجتماع والمشاركة في الأكل

من ذلك: أن لا يبتدىء في الأكل، إذا كان معه من يستحق التقدم لكبر سن أو زيادة فضل، إلا أن يكون هو المتبوع.

ومنها: أن لا يسكتوا على الطعام، بل يتكلمون بالمعروف، ويتحدثون بحكايات الصالحين في الأطعمة وغيرها.

ومن ذلك: أن يقصد كل منهم الإيثار لرفيقه، ولا يحوج رفيقه إلى أن يقول له: كل، بل ينبسط ولا يتصنع بالانقباض.

ومن ذلك: أن لا ينظر إلى أصحابه حالة الأكل لئلا يستحيوا.

ومن ذلك: أن لا يفعل ما يستقذره من غيره، فلا ينفض يده في القصعة، ولا يقدم إليها رأسه عند وضع اللقمة في فيه، وإذا أخرج شيئاً من فيه ليرمي به، صرف وجهه عن الطعام وأخذه بيساره ولا يغمس اللقمة الدسمة في الخل، ولا يغمس بقية اللقمة التي أكل منها في المرقة.

---

(١) أخرجه مسلم عن أنس.
(٢) الغمر بفتحتين: الدسم والزهومة من اللحم.

فضل الكسب والحث عليه

روى البخاري أن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «ما أكل أحدٌ طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وأن نبيَّ الله داود كان يأكل من عمل يده».

وقيل لأحمد بن حنبل: ما تقول في رجل جلس في بيته أو مسجده. وقال: لا أعمل شيئاً متى يأتني رزقي؟ فقال أحمد: هذا رجل جهل العلم، أما سمع قول النبي ﷺ: «إن الله جعل رزقي تحت ظل رمحي» وقال حين ذكر الطير: «تغدو خماصاً وتروح بطاناً».

وكان أصحاب رسول الله ﷺ يتَّجرون في البر والبحر، ويعملون في نخلهم والقدوة بهم.

وقال أبو سليمان الداراني: ليس العبادة عندنا أن تَصِفَّ قدمَيْك (يعني في الصلاة) وغيرك يتعب، ولكن ابدأ برغيفَيْكَ فأحْرِزْهُما، ثم تعبَّد.

الإحسان بالمعاملة

وقد أمر الله تعالى بالعدل والإحسان، فمن الإحسان المسامحة في البيع، وأن لا يغبن المشتري في الربح بما لا يتغابن به في العادة، فأما أصل المغابنة فمأذون فيه، لأن البيع للربح، ولكن يراعى فيه التقريب، فإن بذل المشتري زيادة على الربح المعتاد لشدة رغبته وحاجته، فينبغي أن يمتنع البائع من قبول ذلك، فإن ذلك من الإحسان.

ومن ذلك: أنه إذا أراد استيفاء الثمن أو الدين، فيحسن تارة بالمسامحة وتارة بحط البعض، وتارة بالإنظار، وتارة بالتساهل، وتارة في جودة النقد.

ومن الإحسان: أن يقيل من يستقيله، فإنه لا يستقيل إلا متضرر بالبيع، والأحاديث تشهد بفضل هذه الأمور المذكورة، وما لصاحبها من الأجر والثواب.

درجات الورع

والورع له درجات أربع:

الدرجة الأولى: وهي درجة العدول عن كل ما تقتضي الفتوى تحريمه، وهذا لا يحتاج إلى أمثلة.

الدرجة الثانية: الورع عن كل شبهة لا يجب اجتنابها، ولكن يستحب ومن هذا قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»[1].

الدرجة الثالثة: الورع عن بعض الحلال مخافة الوقوع في الحرام.

الدرجة الرابعة: الورع عن كل ما ليس لله تعالى، وهو ورع الصديقين، مثال ذلك ما روي عن يحيى بن يحيى النيسابوري رحمه الله عليه أنه شرب دواء، فقالت له امرأته: لو مشيت في الدار قليلاً حتى يعمل الدواء، فقال: هذه مشية لا أعرفها، وأنا أحاسب نفسي منذ ثلاثين سنة. فهذا رجل لم تحضره نية في هذه المشية تتعلق بالدين، فلم يقدم عليها، فهذا من دقائق الورع.

والتحقيق فيه: أن الورع له أول وغاية، وبينهما درجات في الاحتياط، فكلما كان الإنسان أشد تشديداً، كان أسرع جوازاً على الصراط، وأخف ظهراً، وتتفاوت المنازل في الآخرة بحسب تفاوت هذه الدرجات في الورع، كما تتفاوت دركات النار في حق الظلمة بحسب درجات الجرام، فإن شئت فزد في الاحتياط، وإن شئت فترخص، فلنفسك تحتاط وعليها تترخص.

---

(١) رواه الترمذي والحاكم من حديث الحسن وصححاه.

كتاب آداب الصحبة
والأخوة ومعاشرة الخلق ونحو ذلك

اعلم: أن الألفة ثمرة حسن الخلق، والتفرق ثمرة سوء الخلق، لأن حسن الخلق يوجب التحابب والتوافق، وسوء الخلق يثمر التباغض والتدابر، ولا يخفى ما في حسن الخلق من الفضل، والأحاديث دالة على ذلك.

فقد روي من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن»[1].

وفي حديث آخر: «إن أحبكم إليّ وأقربكم مني في الآخرة محاسنكم أخلاقاً وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني في الآخرة مساويكم أخلاقاً، الثرثارون المتفيهقون المشتدقون»[2].

وسئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ فقال: «تقوى الله وحسن الخلق»[3].

وأما المحبة في الله تعالى، ففي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يومَ لا ظل إلا ظله» فذكر منهم: «ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه»[4].

---

(١) رواه الترمذي وصححه.
(٢) رواه أحمد ٤/ ١٩٣ و١٩٤ وابن حبان (١٩١٧) بسند رجاله ثقات رجال مسلم.
(٣) أخرجه الترمذي والحاكم من حديث أبي هريرة وقال: صحيح الإسناد.
(٤) متفق عليه.

وفي حديث آخر يقول الله عزّ وجلّ: «حقت محبتي للمتحابين فيَّ، وحقت محبتي للمتباذلين فيَّ، وحقت محبتي للمتزاورين فيَّ»[1].

وفي حديث آخر: «أوثق عرى الإيمان، أن تحب في الله وتبغض في الله»[2]، والأحاديث في ذلك كثيرة.

الصفات المشروطة فيمن تختار صحبته

روينا عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»[3].

فينبغي أن يكون فيمن تؤثر صحبته خمس خصال:

أن يكون عاقلاً حسن الخلق غير فاسق ولا مبتدع ولا حريص على الدنيا.

أما العقل: فهو رأس الأمر، ولا خير في صحبة الأحمق، لأنه يريد أن ينفعك فيضرك، ونعني بالعاقل الذي يفهم الأمور على ما هي عليه، إما بنفسه، وإما أن يكون بحيث إذا أفهم فهم.

وأما حسن الخلق، فلا بد منه، إذ ربَّ عاقل يغلبه غضب أو شهوة فيطيع هواه فلا خير في صحبته.

وأما الفاسق: فإنه لا يخاف الله، ومن لا يخاف الله تعالى لا تؤمن غائلته ولا يوثق به.

وأما المبتدع: فيخاف من صحبته بسراية بدعته.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: عليك بإخوان الصدق تعش في

---

(١) أخرجه أحمد من حديث عبادة ورواه الحاكم وصححه.
(٢) أخرجه أحمد من حديث البراء وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه والخرئطي من حديث ابن مسعود بسند ضعيف.
(٣) أخرجه أبو داود والترمذي عن أبي هريرة وحسنه.

أكنافهم، فإنهم زينة في الرخاء وعدة في البلاء، وضع أمر أخيك على أحسنه حتى يجيئك ما يقليك منه، واعتزل عدوك، واحذر صديقك إلا الأمين، ولا أمين إلا من يخشى الله تعالى، ولا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره، ولا تُطلعه على سرك، واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالى.

جملة من آداب المعاشرة للخلق

ولنذكر في آخر هذا الباب جملة من آداب المعاشرة للخلق:

فمن حسن المعاشرة: أن تتوقر من غير كبر، وتتواضع في غير ذلة، وأن تلقى الصديق والعدو بوجه الرضى من غير ذل لهم ولا خوف منهم، وتتحفظ في مجالسك من تشبيك أصابعك، وإدخال إصبعك في أنفك، وكثرة بصاقك، والتثاؤب.

واصغ إلى محدثك، ولا تسأله الإعادة، ولا تحدِّث بإعجابك بولدك وجاريتك، ولا تتصنع تصنُّع المرأة في التزيين، ولا تتبذل تبذل العبد.

وخوف أهلك في غير عنف، ولن لهم من غير ضعف.

ولا تهازل أمتك وعبدك، فيسقط وقارك، ولا تكثر الالتفات إلى ورائك.

ولا تجالس السلطان، فإن فعلت فاحذر الكذب والغيبة، وصن سره، واحذر المداعبة عنده، وتحفظ من الجشاء بحضرته والتخلل، وإن قربك فكن منه على حذر، وإن استرسل إليك فلا تأمن انقلابه عليك، وارفق به رفقك بالصبي، وكلمه بما يشتهيه، ولا تدخل بينه وبين أهله وحشمه.

وإياك وصديق العافية.

ولا تجعل مالك أكرم من عرضك.

وإذا دخلت مجلساً فاجلس فيما هو أقرب للتواضع.

ولا تجلس على الطريق، فإذا جلست فغض البصر، وانصر المظلوم، وأرشد الضال.

ولا تبصق في جهة القبلة ولا عن يمينك، ولكن عن يسارك تحت قدمك اليسرى.

واحذر مجالسة العوام، فإن فعلت فعليك بالتغافل عما يجري من سوء أخلاقهم وترك الخوض في حديثهم.

واحذر كثرة المزاح فإن اللبيب يحقد عليك في المزاح، والسفيه يجترىء عليك.

* * *

حقوق المسلم
والرحم والجوار والملك ونحو ذلك

فمن حقوق المسلم: أن تسلم عليه إذا لقيته، وتجيبه إذا دعاك، وتشمته إذا عطس، وتعوده إذا مرض، وتشهد جنازته إذا مات، وتبر قسمه، وتنصح له إذ استنصحك، وتحفظه بظهر الغيب إذا غاب، وتحب له ما تحب لنفسك، وتكره له ما تكره لنفسك. وجميع هذا منقول في الآثار.

ومنها: أن لا تؤذي أحداً من المسلمين بقول ولا فعل، وأن تتواضع للمسلمين، فلا تتكبر عليهم، ولا تسمع بلاغات الناس بعضهم في بعض، ولا تبلغ بعضهم ما تسمع من بعض.

ومنها: أن لا تزيد في الهجرة على ثلاثة أيام لمن تعرفه، للحديث المشهور في ذلك.

وفي حديث آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا يحل لمؤمن أن يهجر مؤمناً فوق ثلاثة أيام، فإذا مرت به ثلاثة أيام فلقيه فليسلم عليه، فإن رد عليه السلام، فقد اشتركا في الأجر، وإن لم يرد، عليه فقد برىء المسلِّم من الهجرة»[1].

واعلم: أن هذه الهجرة إنما هي فيما يتعلق بالدنيا، أما حق الدين، فإن

---

(١) أخرجه أبو داود عن أبي هريرة بإسناد حسن.

هجران أهل البدع والأهواء والمعاصي ينبغي أن تدوم، ما لم تظهر منهم التوبة والرجوع إلى الحق.

ومنها: أن يحسن إلى كل من يقدر أن يحسن إليه من المسلمين ما استطاع، وأن لا يدخل على أحد منهم إلا بإذنه، ويستأذن ثلاثاً فإن لم يأذن انصرف.

ومنها: أن يخالق الناس بخلق حسن، وذلك أن يعامل كلاً منهم بحسب طريقته، فإنه متى لقي الجاهل بالعلم، واللاهي بالفقه، والغبي بالبيان، آذى وتأذى.

ومنها: أن يوقر المشايخ، ويرحم الصبيان، وأن يكون مع الخلق كافة طلق الوجه رفيقاً، وأن يفي لهم بالوعد، وينصف الناس من نفسه، ولا يأتي إليهم إلا ما يحب أن يؤتى إليه.

ومنها: زيادة توقير ذوي الهيئات.

ومنها: إصلاح ذات البين، وستر عورات المسلمين.

ومن تأمل ستر الله تعالى على العصاة في الدنيا اقتدى بلطفه، فإنه جعل الشهادة في الزنى أن يشهد أربعة من العدول أنهم شهدوا ذلك كالميل في المكحلة، وهذا لا يتفق. وهذا من أثر كرمه في الدنيا الذي يرجى منه ذلك في الآخرة.

ومنها: أن يتقي مواضع التهم، صيانة لقلوب الناس عن سوء الظن به، وألسنتهم عن غيبته.

ومنها: أن يشفع لكل من له حاجة من المسلمين إلى من له عنده منزلة، ويسعى في قضاء حوائجهم.

ومنها: أن يبدأ بالسلام على كل مسلم قبل أن يكلمه، ومن السنة المصافحة. فقد روي عن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ما من مسلمَيْنِ التقيا، فأخذ أحدهما بيد صاحبه، إلا كان

حقاً على الله عزّ وجلّ أن يحضر دعاءهما، وأن لا يفرق بين أيديهما حتى يغفر لهما»[1].

وفي حديث آخر: «إذا صافح المؤمن المؤمن نزلت عليهما مائة رحمة، تسعة وتسعون لأبشهما وأحسنهما خلقاً»[2].

ولا بأس بتقبيل يد المعظم في الدين، ولا بأس بالمعانقة.

وأما الأخذ بالركاب لتوقير العلماء، فقد فعل ذلك ابن عباس بزيد بن ثابت رضي الله عنهما، والقيام على سبيل الإكرام لأهل الفضل حسن، وأما الانحناء فمنهي عنه.

ومنها: أن يصون عرض أخيه المسلم ونفسه وماله عن ظلم الغير، ويناضل دونه وينصره.

ومنها: أنه إذا ابتلي بذي شر، فينبغي أن يجامله ويتقيه، لحديث عائشة رضي الله عنها.

استأذن رجل على رسول الله ﷺ فقال: «ائذنوا له فبئس رجل العشيرة»[3].

وقال محمد بن الحنفية: ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بداً، حتى يجعل الله عزّ وجلّ له فرجاً.

ومنها: أن يجتنب مخالطة الأغنياء، ويختلط بالمساكين، ويحسن إلى الأيتام.

ومنها: عيادة مرضاهم.

من آداب عيادة المرضى

ومن آداب العائد: أن يضع يده على المريض، ويسأله كيف هو، ويخفف الجلوس، ويظهر الرقة، ويدعو له بالعافية، ويغض البصر عن عورات المكان.

---

(١) أخرجه بمعناه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث البراء بن عازب.
(٢) قال الحافظ العراقي رواه البزار في «مسنده» والخرائطي في «مكارم الأخلاق» والبيهقي «الشعب» وفي إسناده نظر.
(٣) متفق عليه.

آداب المريض

ويستحب للمريض أن يفعل ما أخرجه مسلم في أفراده، من حديث عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه أنه شكا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجعاً يجده في جسده منذ أسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ضع يدك على الذي يألم من جسدك وقل: بسم الله ثلاثاً، وقل سبع مرات: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر».

وجملة آداب المريض: حسن الصبر، وقلة الشكوى والتضجر، والفزع إلى الدعاء، والتوكل على الله سبحانه.

من آداب تشييع الجنائز

ومنها: أن يشيِّع جنائزهم، ويزور قبورهم.

والمقصود من التشييع: قضاء حق المسلمين، والاعتبار.

قال الأعمش: كنا نحضر الجنائز، فلا ندري من نعزي لحزن القوم كلهم.

والمقصود من زيارة القبور: الدعاء، والاعتبار، وترقيق القلب.

ومن آداب تشييع الجنائز؛ المشي، ولزوم الخشوع، وترك الحديث، وملاحظة الميت، والتفكير في الموت، والاستعداد له.

حقوق الجار

وأما حقوق الجار: فاعلم أن الجوار يقتضي حقاً وراء ما تقتضيه أخوّة الإسلام فيستحق ما يستحقه كل مسلم وزيادة.

وجاء في الحديث: «إن الجيران ثلاثة: جار له حق واحد، وجار له حقان، وجار له ثلاثة حقوق. فالجار الذي له ثلاثة حقوق: الجار المسلم ذو الرحم، فله حق الجوار، وحق الإسلام، وحق الرحم. وأما الذي له حقان: فالجار المسلم، له حق الإسلام، وحق الجوار. وأما الذي له حق واحد: فالجار المشرك»[1].

---

(١) أخرجه البزار، في «مسنده»، وأبو الشيخ في «كتاب الثواب»، وأبو نعيم في =

واعلم: أنه ليس حق الجوار كف الأذى فقط، بل احتمال الأذى والرفق، وابتداء الخير، وأن يبدأ جاره بالسلام، ولا يطيل معه الكلام، ويعوده في المرض. ويعزيه في المصيبة، ويهنئه في الفرح، ويصفح عن زلاته، ولا يطلع إلى داره، ولا يضايقه في وضع الخشب على جداره، ولا في صب الماء في ميزابه، ولا في طرح التراب في فنائه، ولا يتبعه النظر فيما يحمله إلى داره، ويستر ما ينكشف من عوراته، ولا يتسمع عليه كلامه، ويغض طرفه عن حرمه، ويلاحظ حوائج أهله إذا غاب.

حقوق الأقارب والرحم

وأما حقوق الأقارب والرحم، ففي الحديث الصحيح، من رواية عائشة، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الرحم معلقة بالعرش، تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله»[1].

وفي حديث آخر من أفراد البخاري[2]: ليس الواصل بالمكافيء، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها».

وفي حديث آخر من أفراد مسلم أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيؤون إليّ، وأحلم عنهم ويجهلون عليّ، قال: «لئن كنت كما قلت، فكأنما تُسفُّهم الملّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك».

والمعنى: أنك منصور عليهم، وقد انقطع احتجاجهم عليه بحق القرابة، «الملّ» الرماد الحار. والأحاديث في ذلك كثيرة مشهورة في صلة الرحم، وفي حقوق الوالدين. وفي تأكد حق الأم.

= «الحلية»، من حديث جابر، ورواه ابن عدي من حديث عبد الله بن عمرو، قال الحافظ العراقي وكلاهما ضعيف.

(١) رواه مسلم.

(٢) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

حقوق الولد والمملوك

وأما حقوق الولد: فاعلم أنه لما كانت الطباع تميل إلى الولد لم يحتج إلى تأكيد الوصية به، إلا أنه قد يغلب هوى الوالد للولد، فيترك تعليمه وتأديبه. وقد قال الله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم: ٦].

قال المفسرون: معناه: علموهم وأدبوهم.

وينبغي للوالد أن يحسن اسم ابنه، ويعق عنه[1]، فإذا بلغ سبع سنين أمره بالصلاة وختنه، فإذا بلغ زوجه.

وأما حقوق المملوك: فأن يطعمه، ويكسوه، ولا يكلفه ما لا يطيق، ولا ينظر إليه بعين الازدراء، وأن يعفو عن زلله، وليتذكر الله عند زلل نفسه، فيعفو رجاء أن يعفو الله تعالى عنه.

* * *

العزلة والخلطة

اختلف الناس في العزلة والمخالطة، أيتهما أفضل؟ مع أن كل واحدة منهما لا تنفك عن فوائد وغوائل، وأكثر الزهاد اختاروا العزلة.

واختار أكثر العلماء الخلطة لقوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم». [رواه أحمد والترمذي].

أقول: من أحسن ما قيل في العزلة والخلطة ما قاله شيخ مشايخنا السيد صبغة الله الأرواسي: «إن قدرت على أكلهم فخالطهم، وإن قدروا على أكلك فجانبهم»، فإنه يجمع بين الأحاديث الظاهرة التعارض في الباب.

* * *

---

(١) عق عن ولده: إذا ذبح عنه يوم سابعه عقيقة، وأصل العقيقة: الشعر الذي يكون على رأس الصبي حين يولد. أي: شاتان للذكر وشاة للأنثى. وانظر «تحفة المودود بأحكام المولود» لابن القيم.

كتاب الأمر بالعروف والنهي عن المنكر

اعلم: أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي بعث الله به النبيين، ولو طوي بساطه، لاضمحلت الديانة، وظهر الفساد، وخربت البلاد.

قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وفي هذه الآية بيان أنه فرض على الكفاية لا فرض عين، لأنه قال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾، ولم يقل: كونوا كلكم آمرين بالمعروف، فإذا قام به من يكفي سقط عن الباقين، واختص الفلاح بالقائمين المباشرين له. وفي القرآن العظيم آيات كثيرة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها والمداهن فيها، مثل قوم ركبوا سفينة فأصاب بعضهم أسفلها وأوعرها وشرها، وأصاب بعضهم أعلاهـا، فكان الذين فـي أسفلها إذا استقوا الماء مروا على من فوقهم فآذوهم، فقالوا: لو خرقنا في نصيبنا خرقاً فاستقينا منه ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وأمرهم هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعاً»[1].

مراتب الإنكار وبعض ما ورد فيه

فقد جاء في الحديث المشهور من رواية مسلم عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه.

وفي حديث آخر: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»[1].

وفي حديث آخر: «إذا رأيت أمتي تهاب الظالم أن تقول له: أنت ظالم، فقد تُودِّع منهم»[2].

وقام أبو بكر رضي الله عنه، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإنا سمعنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعذاب»[3].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليسلطن الله شراركم على خياركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم»[4].

ويشترط كون المنكر قادراً على الإنكار، فأما العاجز فليس عليه الإنكار إلا بقلبه، ولا يقف سقوط الوجوب على العجز الحسي بل يلتحق به خوف مكروه يناله فذلك في معنى العجز.

وكذلك إذا علم أن إنكاره لا ينفع، لكن يستحب الإنكار حينئذٍ لإظهار شعائر الإسلام والتذكير بالدين إن لم يخف مكروهاً.

آداب المعيشة وأخلاق النبوة

اعلم: أن آداب الظواهر عنوان آداب البواطن، وحركات الجوارح ثمرات الخواطر، والأعمال نتائج الأخلاق، والآداب رشح المعارف، وسرائر القلوب هي مغارس الأفعال ومنابعها، وأنوار السرائر هي التي تشرق على الظواهر فتزينها وتحليها.

---

(١) رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه.
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.
(٣) رواه أبو داود والترمذي وصححه.
(٤) رواه الترمذي وقال حديث حسن.

ومن لم يخشع قلبه لم تخشع جوارحه، ومن لم يكن صدره مشكاة الأنوار الإلهية، ، لم يفض على ظاهره جمال الآداب النبوية.

وقد أسلفنا جملة من الآداب بما يغني عن إعادتها ها هنا، لكن نقتصر في هذا الباب على شيء من آداب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأخلاقه لنجمع مع جمع الاداب تأكيد الإيمان بمشاهدة أخلاقه الكريمة التي يشهد آحادها بأنه أكرم الخلق وأعلاهم مرتبة وأجلهم قدراً، فكيف بمجموعها؟!.

سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: كان خلقه القرآن، يغضب لغضبه ويرضى لرضاه[1].

ولما كمل الله تعالى خلقه أثنى عليه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، فسبحان من أعطى ثم أثنى.

وهذه جملة من محاسن أخلاقه صلى الله عليه وآله وسلم، وصفته[2]:

كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحلم الناس، وأسخى الناس، وأعطف الناس.

وكان يخصف النعل، ويرقع الثوب، ويخدم في مهنة أهله.

وكان أشد حياءً من العذراء في خدرها.

وكان يجيب دعوة المملوك، ويعود المرضى، ويمشي وحده، ويردف خلفه، ويقبل الهدية، ويأكلها، ويكافىء عليها، ولا يأكل الصدقة ولا يجد من الدَّقل[3] ما يملأ بطنه، ولم يشبع من خبز بر ثلاثة أيام تباعاً.

وكان يعصب على بطنه الحجر من الجوع.

وكان يأكل ما حضر، وما عاب طعاماً قط.

وكان لا يأكل متكئاً، ويأكل مما يليه.

---

(١) أخرجه مسلم من حديث سعد بن هشام.

(٢) يراجع لتخريج ما في هذا الفصل شرح المناوي على الجامع الصغير «باب كان».

(٣) الدقل: أردأ التمر.

وكان أحب الطعام إليه اللحم، ومن الشاة الكتف، ومن البقول الدُّباء، ومن الصبغ الخل، ومن التمر العجوة.

وكان يلبس ما وجد، مرة برد حبرة، ومرة جبة صوف.

ويركب تارة بعيراً، وتارة بغلة، وتارة حماراً، ويمشي مرة راجلاً حافياً.

وكان يحب الطيب، ويكره الريح الخبيثة.

ويكرم أهل الفضل، ويتألف أهل الشرف.

ولا يجفو على أحد، ويقبل معذرة المعتذر إليه.

يمزح ولا يقول إلا حقاً، يضحك في غير قهقهة.

لا يمضي عليه وقت في غير عمل لله تعالى، أو فيما لا بد منه من صلاح نفسه.

وما لعن امرأة ولا خادماً قط.

وما ضرب أحداً بيده قط، إلا أن يجاهد في سبيل الله.

وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمات الله.

وما خيِّر بين شيئين إلا اختار أيسرهما، إلا أن يكون مأثماً أو قطيعة رحم، فيكون أبعد الناس منه.

وقال أنس رضي الله عنه: خدمته عشر سنين، فما قال لي: أف قط، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته؟، ولا لشيء لم أفعله: لم لا فعلت كذا؟.

ومن صفته في التوراة: محمد رسول الله، عبدي المختار، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخّاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح.

وكان من خلقه: أنه يبدأ بالسلام من لقيه، ومن واقفه بحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف. وما أخذ أحد يده فأرسل يده حتى يرسلها الآخذ.

وكان يجلس حيث ينتهي به المجلس مختلطاً بأصحابه كأنه أحدهم، فيأتي الغريب فلا يدري أيهم هو حتى يسأل عنه.

وكان طويل السكوت، إذا تكلم لم يسرد كلامه، بل يتثبت فيه ويكرره لِيُفْهِمَ.

وكان يعفو مع القدرة، ولا يواجه أحداً بما يكره.

وكان أصدق الناس لهجة، وأوفاهم ذمة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، ومن رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، وكان أصحابه إذا تكلموا في أمر الدنيا تحدث معهم، وكانوا يتذاكرون أمر الجاهلية فيضحكون ويبتسم.

وكان أشجع الناس. قال بعض أصحابه: كنا إذا احمرت الحدق، واشتد البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يكن بالطويل البائن ولا بالقصير، كان ربعة من القوم.

وكان أزهر اللون ولم يكن بالأدم[1].

وكان رجل الشعر، ليس بالسبط ولا الجعد القطط[2]، وكان شعره إلى شحمة أذنه.

وكان واسع الجبهة، أزج الحواجب[3]، أدعج العينين[4]، أهدب الأشفار[5]، أقنى العرنين[6]، سهل الخدين[7]، كث اللحية[8]، كأن عنقه جيد دمية[9]، عريض الصدر، سواء البطن والصدر، رحب الراحة، طويل

---

(١) الآدَمُ: شديد السُّمرَة.

(٢) السَّبط من الشعر: المُسْترسل غيرُ الجَعْد. والقَطَطَ: القصير الجَعْد.

(٣) الحواجب: جمع حاجب من الحجب المنع، سمي به لمنعه الشمس عن العين. والأزج ـ بفتح الهمزة والزاي وتشديد الجيم ـ صفة مشبهة. وفسره عياض في «الشفاء» بالمقوس. أي: الحاجب المشبه بالقوس وهو الطويل الوافر الشعر، المتصل بعضه ببعض بحيث لا يتخلله فرج.

(٤) أدعج العينين: أي شديد سواد الحدقة مع سعتها.

(٥) أهدب الأشفار: جمع شُفر ـ بالضم وقد تفتح ـ وهي حروف الأجفان التي ينبت عليها الشعر. أَي: الطويل شعر الأشفار. «حاشية الزرقاني على المواهب» ع: ٨٨.

(٦) أي: السائل الأنف المرتفع وسطه مع احديدابه وارتفاع أعلاه.

(٧) أي غير مرتفع الوجنتين.

(٨) كث اللحية: غير دقيقها ولا طويلها، وفيها كثافة.

(٩) جيد ـ بكسر الجيم وإسكان الياء ـ: العنق عبَّر به تفنناً وكراهة للتكرار اللفظي، ودمُيه: الصورة أو المنقوشة من نحو رخام أو عاج، شبه عنقه بعنقها، لأنه يتأنق في صنعها مبالغةً في حسنها. «شرح المواهب» ع ٩٢.

الزندين، كفه ألين من الحرير صلى الله عليه وآله وسلم.

وأما معجزاته صلى الله عليه وآله وسلم:

فإن من شاهد أحواله وسمع أخباره المشتملة على أخلاقه وأفعاله وآدابه وبدائع تدبيره لمصالح الخلق ومحاسن إشارته في تفصيل ظاهر الشرع الذي تعجز العقلاء والفصحاء عن إدراك أوائل دقائقها في طول أعمارهم، لم يبق عنده ريب في أن ذلك لم يكن مكتسباً بحيلة، وأنه لا يتصور ذلك إلا بالاستمداد من تأييد سماوي وقوة إلهية، وإن ذلك لا يصح لملبِّس ولا كذاب، بل كانت شمائله وأحواله شواهد قاطعة بصدقه.

ومن أعظم معجزاته، وأوضح دلالاته القرآن العزيز الذي عجز الخلائق عن الإتيان بمثله، ومعجز كل نبي انقضى بذهابه، وهذا المعجز باقٍ أبداً.

ومن معجزاته: انشقاق القمر، ونبع الماء من بين أصابعه، وإطعامه الخلق الكثير من الطعام اليسير، ورميه بحصيات يسيرة فوصلت إلى أعين الخلق الكثير، وحنين الجذع إليه كما يحن العشار، وإخباره بالغائبات فكانت كما قال، وَرَدَّ عين قتادة بيده فكانت أحسن عينيه، وتفل في عين عليّ رضي الله عنه وهو أرمد فصح من وقته، إلى غير ذلك من المعجزات التي شاعت ولم يوجد سبيل إلى كتمانها، نسأل الله أن يوفقنا للاقتداء بأخلاقه وصفاته، إنه كريم مجيب، والحمد لله رب العالمين.

الربع الثالث: ربع المهلكات

كتاب شرح عجائب القلوب

اعلم: أن أشرف ما في الإنسان قلبه، فإنه العالم بالله، العامل له، الساعي إليه، المقرب المكاشف، بما عنده، وإنما الجوارح أتباع وخدام له يستخدمها القلب استخدام الملوك للعبيد.

ومن عرف قلبه عرف ربه، وأكثر الناس جاهلون بقلوبهم ونفوسهم، والله يحول بين المرء وقلبه، وحيلولته أن يمنعه من معرفته ومراقبته، فمعرفة القلب وصفاته أصل الدين، وأساس طريق السالكين.

مداخل إبليس في قلب الإنسان

اعلم: أن القلب بأصل فطرته قابل للهدى، وبما وضع فيه من الشهوة والهوى، مائل عن ذلك، والتطارد فيه بين جندي الملائكة والشياطين دائم، إلى أن ينفتح القلب لأحدهما، فيتمكن، ويستوطن، ويكون اجتياز الثاني اختلاساً، كما قال تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ٤]، وهو الذي إذا ذكر الله خنس، وإذا وقعت الغفلة انبسط، ولا يطرد جند الشياطين من القلب إلا ذكر الله تعالى، فإنه لا قرار له مع الذكر.

واعلم: أن مثل القلب كمثل حصن، والشيطان عدو يريد أن يدخل الحصن، ويملكه ويستولي عليه، ولا يمكن حفظ الحصن إلا بحراسة أبوابه، ولا يقدر على حراسة أبوابه من لا يعرفها، ولا يتوصل إلى دفع الشيطان إلا بمعرفة مداخله، ومداخل الشيطان وأبوابه صفات العبد، وهي كثيرة، إلا أنّا نشير إلى الأبواب العظيمة الجارية مجرى الدروب التي لا تضيق عن كثرة جنود الشيطان.

فمن أبوابه العظيمة: الحسد، والجرص، فمتى كان العبد حريصاً على شيء، أعماه حرصه وأصمه، وغطى نور بصيرته التي يعرف بها مداخل الشيطان.

وكذلك إذا كان حسوداً، فيجد الشيطان حينئذٍ الفرصة، فيحسن عند الحريص كل ما يوصله إلى شهوته، وإن كان منكراً أو فاحشاً.

ومن أبوابه العظيمة: الغضب، والشهوة، والحدة، فإن الغضب غول العقل، وإذا ضعف جند العقل هجم حينئذٍ الشيطان فلعب بالإنسان. وقد روي أن إبليس يقول: إذا كان العبد حديداً، قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة[1].

ومن أبوابه: حب التزيين في المنزل والثياب والأثاث، فلا يزال يدعو إلى عمارة الدار وتزيين سقوفها وحيطانها، والتزين بالثياب، والأثاث، فيخسر الإنسان طول عمره في ذلك.

ومن أبوابه: الشبع، فإنه يقوي الشهوة، ويشغل عن الطاعة.

ومنها: الطمع في الناس، فإن من طمع في شخص، بالغ بالثناء عليه بما ليس فيه، وداهنه، ولم يأمره بالمعروف، ولم ينهه عن المنكر.

ومن أبوابه: العجلة، وترك التثبت، وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «العجلة من الشيطان، والتأني من الله تعالى»[2].

ومن أبوابه: حب المال، ومتى تمكن من القلب أفسده، وحمله على طلب المال من غير وجهه، وأخرجه إلى البخل، وخوفه الفقر، فمنع الحقوق اللازمة.

---

(١) هذه الرواية محكية عن راهب.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٠١٣) في البر والصلة: باب ما جاء في التأني والعجلة من حديث سهل بن سعد الساعدي ولفظه «الأناة من الله والعجلة من الشيطان» وفي سنده عبد المهيمن بن عباس وهو ضعيف.

ومن أبوابه: حمل العوام على التعصب في المذاهب، دون العمل بمقتضاها.

ومن أبوابه أيضاً: حمل العوام على التفكير في ذات الله تعالى، وصفاته، وفي أمور لا تبلغها عقولهم حتى يشككهم في أصل الدين.

ومن أبوابه: سوء الظن بالمسلمين، فإن من حكم على مسلم بسوء ظنه، احتقره وأطلق فيه لسانه، ورأى نفسه خيراً منه، وإنما يترشح سوء الظن بخبث الظان، لأن المؤمن يطلب المعاذير للمؤمن، والمنافق يبحث عن عيوبه.

وينبغي للإنسان أن يحترز عن مواقف التهم، لئلا يساء به الظن، فهذا طرف من ذكر مداخل الشيطان، وعلاج هذه الآفات سد المداخل بتطهير القلب من الصفات المذمومة، وسيأتي الكلام على هذه الصفات إن شاء الله تعالى مفصلاً.

فإذا قُلعت من القلب أصول هذه الصفات، بقي للشيطان بالقلب خطرات واجتيازات من غير استقرار، فيمنعه من ذلك ذكر الله تعالى، وعمارة القلب بالتقوى.

ومثل الشيطان: كمثل كلب جائع يقرب منك، فإن لم يكن بين يديك لحم وخبز، فإنه ينزجر بأن تقول له: إخسأ، وإن كان بين يديك شيء من ذلك وهو جائع، لم يندفع عنك بمجرد الكلام، فكذلك القلب الخالي عن قوت الشيطان ينزجر عنه بمجرد الذكر.

فأما القلب الذي غلب عليه الهوى، فإنه يُرفع الذكرُ إلى حواشيه، فلا يتمكن الذكر من سويدائه، فيستقر الشيطان في السويداء.

وإذا أردت مصداق ذلك، فتأمل هذا في صلاتك، وانظر إلى الشيطان كيف يحدث قلبك في مثل ذلك الموطن، بذكر السوق، وحساب المعاملين، وتدبير أمر الدنيا.

الطريق إلى معرفة الإنسان عيوب نفسه

واعلم: أن الله تعالى إِذا أراد بعبد خيراً بصره بعيوب نفسه، فمن كانت له بصيرة، لم تخف عليه عيوبه، وإذا عرف العيوب أمكنه العلاج، ولكن أكثر الناس جاهلون بعيوبهم، يرى أحدهم القذى في عين أخيه ولا يرى الجذع في عينه.

فمن أراد الوقوف على عيب نفسه، فله في ذلك أربع طرق:

الطريقة الأولى: أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس، يعرفه عيوب نفسه وطرق علاجها، وهذا قد عز في هذا الزمان وجوده، فمن وقع به، فقد وقع بالطبيب الحاذق فلا ينبغي أن يفارقه.

الطريقة الثانية: أن يطلب صديقاً صدوقاً بصيراً متديناً، وينصبه رقيباً على نفسه لينبهه على المكروه من أخلاقه وأفعاله.

وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: رحم الله امرءاً أهدى إلينا عيوبنا.

وسأل سلمان رضي الله عنه لما قدم عليه من عيوبه، فقال: سمعت أنك جمعت بين إدامين على مائدة، وأن لك حلتين: حلة بالليل، وحلة بالنهار، فقال: هل بلغك غير هذا؟ قال: لا، قال: أما هذان فقد كفيتهما.

وكان عمر رضي الله عنه يسأل حذيفة: هل أنا من المنافقين؟ وهذا لأن كل من علت مرتبته في اليقظة زاد اتهامه لنفسه، إلا أنه عز في هذا الزمان وجود صديق على هذه الصفة، لأنه قل في الأصدقاء من يترك المداهنة، فيخبر بالعيب، أو يترك الحسد، فلا يزيد على قدر الواجب.

وقد كان السلف يحبون من ينبههم على عيوبهم، ونحن الآن في الغالب أبغض الناس إلينا من يعرفنا عيوبنا.

وهذا دليل على ضعف الإيمان، فإن الأخلاق السيئة كالعقارب، ولو أن منبهاً نبهنا على أن تحت ثوب أحدنا عقرباً لتقلدنا له منّة، واشتغلنا بقتلها،

والأخلاق الرديئة أعظم ضرراً من العقرب على ما لا يخفى.

الطريقة الثالثة: أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه، فإن عين السخط تبدي المساوىء، وانتفاع الإنسان بعدو مشاجر يذكر عيوبه، أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يخفي عنه عيوبه.

الطريقة الرابعة: أن يخالط الناس، فكل ما يراه مذموماً فيما بينهم، يجتنبه.

علامات حسن الخلق من كتاب الله تعالى

ربما جاهد المريد نفسه حتى ترك الفواحش والمعاصي، ثم ظن أنه قد هذب خلقه، واستغنى عن المجاهدة، وليس كذلك، فإن حسن الخلق هو مجموع صفات المؤمنين، وقد وصفهم الله تعالى فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۝٤﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤]، وقال: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢] وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ١٠]، وقال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] إلى آخر السورة، فمن أشكل عليه حاله، فليعرض نفسه على هذه الآيات، فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق، وفقد جميعها علامة سوء الخلق، ووجود بعضها دون البعض يدل على البعض دون البعض فليشتغل بحفظ ما وجده وتحصيل ما فقده.

علامات حسن الخلق من سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسيرة الصالحين:

وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المؤمن بصفات كثيرة، وأشار بها إلى محاسن الأخلاق.

ففي «الصحيحين» من حديث أنس رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

وفيهما أيضاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت».

وفي حديث آخر: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً»(١).

ومن حسن الخلق: احتمال الأذى، ففي «الصحيحين» أن أعرابياً جذب رداء النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى أثرت حاشيته في عاتقه صلى الله عليه وآله وسلم، ثم قال: يا محمد، مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم ضحك، ثم أمر له بعطاء.

وكان إذا آذاه قومه قال: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»(٢).

وكان أويس القرني إذا رماه الصبيان بالحجارة يقول: يا إخوتاه، إن كان ولا بد، فارموني بالصغار لئلا تدموا ساقي فتمنعوني من الصلاة.

وخرج إبراهيم بن أدهم إلى بعض البراري، فاستقبله جندي فقال: أين العمران؟ فأشار إلى المقبرة، فضرب رأسه فشجه، فلما أخبر أنه إبراهيم، جعل يقبِّل يده ورجله، فقال: إنه لما ضرب رأسي، سألت الله له الجنة، لأني علمت أني أوجر بضربه إياي فلم أحب أن يكون نصيبي منه الخير، ونصيبه مني الشر.

واجتاز بعضهم في سكة، فطرح عليه رماد من السطح، فجعل أصحابه يتكلمون. فقال: من استحق النار فصولح على الرماد، ينبغي له أن لا يغضب.

---

(١) أخرجه أبو داود عن أبي هريرة. قال العراقي في أماليه: حديث صحيح.
(٢) متفق عليه.

فهذه نفوس ذللت بالرياضة، فاعتدلت أخلاقهم، ونقيت عن الغش بواطنها، فأثمرت الرضى بالقضاء، ومن لم يجد من نفسه بعض هذه العلامات التي وجدها هؤلاء، فينبغي أن يداوم الرياضة ليصل، فإنه بعدُ ما وصل.

رياضة الصبيان في أول النشوء

اعلم: أن الصبي أمانة عند والديه، وقلبه جوهرة ساذجة، وهي قابلة لكل نقش، فإن عُوِّد الخير نشأ عليه، وشاركه أبواه ومؤدبه في ثوابه، وإن عود الشر نشأ عليه، وكان الوزر في عنق وليه، فينبغي أن يصونه ويؤدبه ويهذبه، ويعلمه محاسن الأخلاق، ويحفظه من قرناء السوء، ولا يعوّده التنعم، ولا يحبب إليه أسباب الرفاهية فيضيع عمره في طلبها إذا كبر.

بل ينبغي أن يراقبه من أول عمره، فلا يستعمل في رضاعه وحضانته إلا امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال، فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه، فإذا بدت فيه مخايل التمييز وأولها الحياء، وذلك علامة النجابة وهي مبشرة بكمال العقل عند البلوغ، فهذا يستعان على تأديبه بحيائه.

وأول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام، فينبغي أن يُعلِّمه آداب الأكل، ويعوده أكل الخبز وحده في بعض الأوقات لئلا يألف الإدام فيراه كالحتم، ويقبح عنده كثرة الأكل، بأن يشبه الكثير الأكل بالبهائم، ويحبب إليه الثياب البيض دون الملوثة والإبريسم، ويقرر عنده أن ذلك من شأن النساء والمخنثين، ويمنعه من مخالطة الصبيان الذين عودوا التنعم، ثم يشغله في المكتب بتعليم القرآن والحديث وأحاديث الأخيار، ليغرس في قلبه حب الصالحين، ولا يحفظ من الأشعار التي فيها ذكر العشق.

ومتى ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود، فينبغي أن يكرم عليه، ويجازى بما يفرح به، ويمدح بين أظهر الناس، فإن خالف ذلك في بعض الأحوال تغوفل عنه ولا يكاشف، فإن عاد عوتب سراً وخُوِّفَ من اطلاع الناس عليه، ولا يكثر عليه العتاب، لأن ذلك يهون عليه سماع الملامة، وليكن حافظاً هيبة الكلام معه.

وينبغي للأم أن تخوفه بالأب، وينبغي أن يمنع النوم نهارا، فإنه يورث الكسل، ولا يمنع النوم ليلاً، ولكنه يمنع الفرش الوطيئة لتتصلب أعضاؤه.

ويتعود الخشونة في المفرش والملبس والمطعم.

ويعود المشي والحركة والرياضة لئلا يغلب عليه الكسل.

ويمنع أن يفتخر على أقرانه بشيء مما يملكه أبواه، أو بمطعمه أو ملبسه.

ويعوَّد التواضع والإكرام لمن يعاشره.

ويمنع أن يأخذ شيئاً من صبي مثله، ويعلم أن الأخذ دناءة، وأن الرفعة في الإعطاء.

ويقبح عنده حب الذهب والفضة.

ويعود أن لا يبصق في مجلسه، ولا يتمخط، ولا يتثاءب بحضرة غيره، ولا يضع رجلا على رجل، ويمنع من كثرة الكلام.

ويعود أن لا يتكلم إلا جواباً، وأن يحسن الاستماع إذا تكلم غيره ممن هو أكبر منه، وأن يقوم لمن هو فوقه ويجلس بين يديه.

ويمنع من فحش الكلام، ومن مخالطة من يفعل ذلك، فإن أصل حفظ الصبيان حفظهم من قرناء السوء.

ويحسن أن يفسح له بعد خروجه من المكتب في لعب جميل، ليستريح به من تعب التأديب، كما قيل: روح القلوب تع الذكر.

وينبغي أن يعلم طاعة والديه ومعلمه وتعظيمهم.

وإذا بلغ سبع سنين أمر بالصلاة، ولم يسامح في ترك الطهارة ليتعود، ويخوف من الكذب والخيانة.

كتاب كسر الشهوتين

شهوة البطن، وشهوة الفرج

شهوة البطن

شهوة البطن من أعظم المهلكات، وبها أخرج آدم عليه السلام من الجنة، ومن شهوة البطن تحدث شهوة الفرج والرغبة في المال، ويتبع ذلك آفات كثيرة، كلها من بطر الشبع.

وفي الحديث، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «المؤمن يأكل في معي واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء»(١).

وفي حديث آخر: «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، حسب ابن آدم أكلات يُقمْن صُلْبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»(٢).

وقال عقبة الراسبي: دخلت على الحسن وهو يتغدى، فقال: هلم، فقلت: أكلت حتى لا أستطيع، فقال: سبحان الله أو يأكل المسلم حتى لا يستطيع أن يأكل؟!.

وقد بالغ جماعة من الزهاد في التقلل من الأكل والصبر على الجوع، وقد بُيِّنَ عيب ما سلكوا في غير هذا الكتاب، ومقام العدل في الأكل رفع اليدين مع بقاء شيء من الشهوة، ونهاية المقام الحسن قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.
(٢) أخرجه الترمذي وقال حديث حسن.
(٣) أخرجه الترمذي وقال حسن.

فالأكل في مقام العدل يصح البدن وينفي المرض، وذلك أن لا يتناول الطعام حتى يشتهيه، ثم يرفع يده وهو يشتهيه، والدوام على التقلل من الطعام يضعف القوى، وقد قلل أقوام مطاعمهم حتى قصروا عن الفرائض، وظنوا بجهلهم أن ذلك فضيلة، وليس كذلك، ومن مدح الجوع، فإنما أشار إلى الحالة المتوسطة التي ذكرناها.

شهوة الفرج

وأما شهوة الفرج فاعلم أن شهوة الوقاع سلطت على الآدمي لفائدتين:

إحداهما: بقاء النسل.

والثانية: ليُدرك لذة يقيس عليها لذات الآخرة، فإن ما لم يدرك جنسه بالذوق لا يعظم إليه الشوق، إلا أنه إذا لم تُرَدَّ هذه الشهوة إلى الاعتدال جلبت آفات كثيرة ومحنا، ولولا ذلك ما كانت «النساء حبائل الشيطان» كما ورد به الخبر[1].

وعن أسامة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه تعالى وآله وسلم قال: «ما تركت في الناس بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء»[2].

وقد حرم الله تعالى الزنا حفاظاً على نسل بني آدم وأكد تحريمه فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [سورة الإسراء: ٣٢].

وسداً للذريعة إليه حرم الله تعالى النظر إلى المرأة الأجنبية والخلوة بها فإنهما هما الداعيان إلى الزنا والدافعان إليه، ونورد جملة من الآيات والأحاديث الواردة فيهما.

---

(١) قال في كشف الخفاء: رواه أبو نعيم الديلمي والتيمي كلهم مرفوعاً.
(٢) رواه الشيخان.

تحريم نظر الرجل
إلى المرأة الأجنبية والمرأة إلى الرجل الأجنبي

قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣٠ ـ ٣١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

عن حذيفة رضي الله عنه عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «النظرة سهم من سهام إبليس من تركها من مخافة الله أعطاه الله إيماناً يجد حلاوته في قلبه»(١).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «إياكم والجلوس في الطرقات» قالوا: يا رسول الله ما لنا من مجالسنا بُدّ، نتحدث فيها، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه» قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: «غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»(٢).

عن جرير رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن نظر الفجأة فقال: «اصرف بصرك»(٣).

وعن أم سلمة رضي الله تعالى عنها قالت: كنت عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وعنده ميمونة، فأقبل ابن أم مكتوم، وذلك بعد أن أُمرنا بالحجاب، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم «احتجبا منه»

---

(١) رواه الحاكم وصححه وأقره العراقي.
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه مسلم.

فقلنا: يا رسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا؟ فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم «أَفَعَمْيَاوَإِن أنتما ألستما تبصرانه؟!»[1].

وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، والمرأة إلى عورة المرأة»[2].

تحريم الخلوة بالأجنبية

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْئَلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «لا يخلون أحدكم بامرأة إلا مع ذي محرم»[3].

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا يخلون رجل بامرأة فإن ثالثهما الشيطان»[4].

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «إياكم والدخول على النساء» فقال رجل من الأنصار: أفرأيت الحمو؟ قال: «الحمو الموت»[5].

وقال بعض الصالحين: لو ائتمنني رجل على بيت مال لظننت أني أؤدي إليه الأَمَانَةَ، ولو ائتمنني على زنجيةٍ أخلو بها ساعة واحدة، ما ائتمنت نفسي عليها.

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح.
(٢) رواه مسلم.
(٣) متفق عليه
(٤) رواه أحمد وصححه العراقي.
(٥) قال الطبري: معناه: إن خلوة الرجل بإمرأة أخيه أو ابن أخيه تنزل منزلة الموت، والعرب تصف الشيء والمكروه بالموت (فتح الباري ٩/ ٣٣٢).

كتاب آفات اللسان

آفاته كثيرة متنوعة ولها في القلب حلاوة، ولها بواعث من الطبع، ولا نجاة من خطرها إلا بالصمت، فلنذكر أولاً فضيلة الصمت، ثم نتبعه بذكر الآفات مفصلة إن شاء الله تعالى.

اعلم: أن الصمت يجمع الهمة ويفرغ الفكر.

وفي الحديث، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من يضمن لي ما بين لحْييه، وما بين رجليه أضمن له الجنة»[1].

وفي حديث معاذ في آخره: «كف عليك هذا» فقلت يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: «ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم، أو قال: على مناخرهم، إلا حصائد ألسنتهم؟»[2].

وفي حديث آخر: «من كف لسانه ستر الله عورته»[3].

وقال ابن مسعود: ما شيء أحوج إلى طول سجن من لساني.

وقال أبو الدرداء: أنصف أذنيك من فيك، فإنما جعلت لك أذنان وفم واحد، لتسمع أكثر مما تتكلم به.

وقال مخلد بن الحسين: ما تكلمت منذ خمسين سنة بكلمة أريد أن أعتذر منها.

---

(١) أخرجه البخاري عن سهل بن سعد.

(٢) أخرجه الترمذي وصححه.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت، من حديث ابن عمر. وفيه هشام بن أبي إبراهيم قال الذهبي في«الميزان» مجهول. وباقي رجاله ثقات. ومع ذلك فقد حسّن إسناده العراقي.

ذكر آفات الكلام:

الآفة الأولى: (الكلام فيما لا يعني).

واعلم: أن من عرف قدر زمانه، وأنه رأس ماله، لم ينفقه إلا في فائدة، وهذه المعرفة توجب حبس اللسان عن الكلام فيما لا يعني، لأنه من ترك ذكر الله تعالى واشتغل فيما لا يعني، كان كمن قدر على أخذ جوهرة، فأخذ عوضها مدرة، وهذا خسران العمر.

وفي الحديث الصحيح، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[1].

الآفة الثانية: الخوض في الباطل، وهو الكلام في المعاصي، كذكر مجالس الخمر، ومقامات الفساق.

وأنواع الباطل كثيرة. وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إن العبد ليتكلم بالكلمة يزل بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب[2] وقريب من ذلك الجدال والمراء وهو كثرة الملاحاة[3] للشخص لبيان غلطه وإفحامه والباعث على ذلك الترفع.

فينبغي للإنسان: أن ينكر المنكر من القول، ويبين الصواب، فإن قبل منه وإلا ترك الممارَاة، هذا إذا كان الأمر معلقاً بالدين، فأما إذا كان في أمور الدنيا، فلا وجه للمجادلة فيه، وعلاج هذه الآفة بكسر الكبر الباعث على إظهار الفضل، وأعظم من المراء الخصومة، فإنها أمر زائد على المراء.

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»[4]. وهذه الخصومة نعني بها الخصومة بالباطل أو بغير علم،

---

(١) أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة.
(٢) متفق عليه.
(٣) يقال: لاحيته ملاحاة ولحاء إذا نازعته. وفي المثل: من لاحاك فقد عاداك. وقولهم: لحاه الله، أي: قبحه ولعنه.
(٤) متفق عليه من حديث عائشة.

فأما من له حق فالأولى أن يصدف[1] عن الخصومة مهما أمكن لأنها، توغر الصدر، وتهيج الغضب، وتورث الحقد، وتخرج إلى تناول العِرض.

الآفة الثالثة: التقعر في الكلام، وذلك يكون بالتشدق[2]، وتكلف السجع.

وعن أبي ثعلبة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني يوم القيامة مجلساً الثرثارون[3] المتشدقون المتفيهقون»[4].

ولا يدخل في كراهة السجع والتصنع ألفاظ الخطيب، والتذكير من غير إفراط، ولا إغراب، لأن المقصود من ذلك تحريك القلوب، وتشويقها، ورشاقة اللفظ ونحو ذلك.

الآفة الرابعة: الفحش والسب والبذاء[5]، ونحو ذلك، فإنه مذموم منهي عنه، ومصدره الخبث واللؤم.

وفي الحديث: «إياكم والفحش، فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش»[6].

وفي حديث آخر: «ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء»[7].

واعلم: أن الفحش والبذاء هو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة، وأكثر ما يكون ذلك في ألفاظ الجماع وما يتعلق به، فإن أهل الخير يتحاشون عن تلك العبارات ويكنون عنها.

الآفة الخامسة: المزاح، أما اليسير منه، فلا ينهى عنه إذا كان صدقاً.

---

(١) يصدف: يعرض.
(٢) وهو أن يلوي شدقه للتفصح.
(٣) الثرثرة: كثرة الكلام وترديده، يقال: ثرثر الرجل، فهو ثرثار مهذار.
(٤) قال الفراء: فلان يتفيهق في كلامه: وذلك إذا توسع فيه وتنطع، وأصله: الفهق، وهو الامتلاء، كأنه ملأ به فمه.
(٥) البذاء، بالمد الفحش، وفلان بذيء اللسان من قوم أبذياء، والمرأة بذيئة.
(٦) رواه النسائي في الكبرى والحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمرو.
(٧) أخرجه الترمذي من حديث ابن مسعود بإسناد صحيح والحاكم.

فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يمزح ولا يقول إلا حقاً[1]، فإنه قال لرجل «يا ذا الأذنين»[2]، وقال لآخر: «إنا حاملوك على ولد الناقة»،[3] وقال للعجوز: «إنه لا يدخل الجنة عجوز» ثم قرأ: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾﴾[4] [الواقعة: ٣٥، ٣٦]، وقال لأخرى: «زوجك الذي في عينيه بياض؟»[5].

فقد اتفق في مزاحه صلى الله عليه وآله وسلم ثلاثة أشياء:

أحدها: كونه حقاً.

والثاني: كونه مع النساء والصبيان، ومن يحتاج إلى تأديبه من ضعفاء الرجال.

والثالث: كونه نادراً، فلا ينبغي أن يحتج به من يريد الدوام عليه، فإن حكم النادر ليس كحكم الدائم، فالإفراط في المزاح والمداومة عليه منهي عنه، لأنه يسقط الوقار، ويوجب الضغائن والأحقاد، وأما اليسير كما تقدم، من نحو نوع مزاح النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فإن فيه انبساطاً وطيب نفس.

الآفة السادسة: السخرية والاستهزاء، ومعنى السخرية الاحتقار والاستهانة، والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه، وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول، وقد يكون بالإشارة والإيماء، وكله ممنوع منه في الشرع، ورد النهي عنه في الكتاب والسنّة.

الآفة السابعة: إفشاء السر، وإخلاف الوعد، والكذب في القول

---

(١) أخرجه الترمذي عن أبي هريرة وقال: حديث حسن صحيح.
(٢) أخرجه الترمذي عن أنس وقال: حديث صحيح غريب.
(٣) أخرجه الترمذي من حديث أنس وصححه.
(٤) أخرجه الترمذي من حديث حسن مرسلاً وأسنده ابن الجوزي في الوفاء من حديث أنس بسند ضعيف.
(٥) رواه الزبير بن بكار في كتاب الفكاهة والمزاح من حديث زيد بن أسلم وابن أبي الدنيا من حديث عبدة بن سهم الفهري.

واليمين، وكل ذلك منهي عنه، إلا ما رخص فيه من الكذب لزوجته، وفي الحرب، فإن ذلك يباح.

وضابطه أن كل مقصود محمود لا يمكن التوصل إليه إلا بالكذب، فهو فيه مباح إن كان ذلك المقصود مباحاً، وإن كان المقصود واجباً، فهو واجب، فينبغي أن يحترز عن الكذب مهما أمكن.

وتباح المعاريض، لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن في المعاريض مندوحة عن الكذب»[1]، وإنما تصلح المعاريض عند الحاجة إليها، فأما مع غير الحاجة، فمكروهة لأنها تشبه الكذب.

وكان النخعي إذا طلب قال للجارية: قولي لهم: اطلبوه في المسجد.

الآفة الثامنة: الغيبة، وقد ورد الكتاب العزيز بالنهي عنها، وشبه صاحبها بآكل الميتة.

وفي الحديث: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام»[2].

وعن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يا معشر من امن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه: لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته»[3] ومعنى الغيبة: أن تذكر أخاك الغائب بما يكرهه إذا بلغه، سواء كان نقصاً في بدنه، كالعمش، والعور، والحول، والقرع، والطول، والقصر، ونحو ذلك.

---

(١) أخرجه البيهقي وابن عدي من حديث عمران بن حصين مرفوعاً، وفي سنده داود بن الزبرقان وهو متروك وكذبه الأزدي لكن رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٨٨٥) موقوفاً على عمران بن حصين بلفظ إن في معاريض الكلام مندوحة عن الكذب «ورجاله ثقات» وأخرج أيضاً (٨٨٤) من طريق أبي عثمان النهدي عن عمر قال: «أما في المعاريض ما يكفي المسلم من الكذب» والمعاريض والمعارض بإثبات الياء وحذفها جمع معراض من التعريض بالقول. قال الجوهري هو خلاف التصريح، وهو التورية بالشيء عن الشيء.

(٢) إخراجه بمعناه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٣) رواه أبو داود من حديث أبي برزة بإسناد جيد.

أو في نسبه، كقولك؛ أبوه نبطي، أو هندي، أو فاسق، أو خسيس، ونحو ذلك.

أو في خُلُقه كقولك، هو سيء الخلق بخيل متكبر ونحو ذلك.

أو في ثوبه، كقولك: هو طويل الذيل، واسع الكم، وسخ الثياب.

والدليل على ذلك، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما سئل عن الغيبة قال: «ذكرك أخاك بما يكره». قال: أرأيت إن كان في أخي ما أقول يا رسول الله؟ قال: «إن كان في أخيك ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول قد بهته»[1].

واعلم: أن كل ما يفهم منه مقصود الذم، فهو داخل في الغيبة، سواء كان بكلام أو بغيره، كالغمز، والإشارة والكتابة بالقلم، فإن القلم أحد اللسانين.

وأقبح أنواع الغيبة، غيبة المتزهدين المرائين، مثل أن يذكر عندهم إنسان فيقولون: الحمد لله الذي لم يبتلنا بالدخول على السلطان، والتبذل في طلب الحطام، أو يقولون: نعوذ بالله من قلة الحياء، أو نسأل الله العافية، فإنهم يجمعون بين ذم المذكور ومدح أنفسهم.

وربما قال أحدهم عند ذكر إنسان: ذاك المسكين قد بلي بآفة، عظيمة، تاب الله علينا وعليه، فهو يظهر الدعاء ويخفي قصده.

واعلم: أن المستمع للغيبة شريك فيها، ولا يتخلص من إثم سماعها إلا أن ينكر بلسانه، فإن خاف، فبقلبه وإن قدر على القيام، أو قطع الكلام بكلام آخر، لزمه ذلك.

عن أنس عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «من نصرَ أخاه بظهر الغيب نصره الله في الدنيا والآخرة»[2].

---

(١) رواه مسلم من حديث أبي هريرة.
(٢) رواه البيهقي والضياء وصححه الألباني..

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من أذل عنده مؤمن وهو يقدر أن ينصره أذله الله عزّ وجلّ على رؤوس الخلائق»[1].

ورُوِيَ عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من حمى مؤمناً من منافق يعيبه، بعث الله ملكاً يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم»[2].

الأسباب الباعثة على الغيبة وذكر علاجها

أما الأسباب التي تبعث على الغيبة فكثيرة.

منها: تشفي الغيظ، بأن يجري من إنسان في حق آخر سبب يوجب غيظه، فكلما هاج غضبه تشفى بغيبة صاحبه.

السبب الثاني: من البواعث على الغيبة: موافقة الأقران ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم، فإنهم إذا كانوا يتفكهون في الأعراض، رأى هذا أنه إذا أنكر عليهم أو قطع كلامهم استثقلوه ونفروا عنه، فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة.

الثالث: إرادة رفع نفسه بتنقيص غيره، فيقول: فلان جاهل، وفهمه ركيك، ونحو ذلك، غرضه أن يثبت في ضمن ذلك فضل نفسه، ويريهم أنه أعلم منه.

وكذلك الحسد في ثناء الناس على شخص وحبهم له وإكرامهم، فيقدح فيه ليقصد زوال ذلك.

الرابع: اللعب والهزل، فيذكر غيره بما يضحك الناس به على سبيل المحاكاة، حتى إن بعض الناس يكون كسبه من هذا.

---

(١) رواه أحمد والطبراني من حديث سهل بن حنيف، وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف.
(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٨٣) من حديث معاد بن أسد الجهني، وفي سنده مجهول وضعيف..

علاج الغيبة

وأما علاج الغيبة، فليعلم المغتاب أنه بالغيبة تعرض لسخط الله تعالى ومقته، وأن حسناته تنقل إلى المغتاب إليه، وإن لم يكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه، فمن استحضر ذلك لم يطلق لسانه بالغيبة.

وينبغي إذا عرضت له الغيبة أن يتفكر في عيوب نفسه، ويشتغل بإصلاحها، ويستحي أن يعيب وهو معيب.

حصول الغيبة بسوء الظن

وقد تحصل الغيبة بالقلب، وذلك بسوء الظن بالمسلمين.

والظن ما تركن إليه النفس ويميل إليه القلب، فليس لك أن تظن بالمسلم شراً، إلا إذا انكشف أمر لا يحتمل التأويل فإن أخبرك بذلك عدل، فمال قلبك إلى تصديقه، كنت معذوراً، في هذا الميل لأنك لو كذبته كنت قد أسأت الظن بالمخبر، فلا ينبغي أن تحسن الظن بواحد وتسيئه بآخر، بل ينبغي أن تبحث، هل بينهما عداوة وحسد؟ فتتطرق التهمة حينئذٍ بسبب ذلك، ومتى خطر لك خاطر سوء على مسلم، فينبغي أن تزيد في مراعاته وتدعو له بالخير، فإن ذلك يغيظ الشيطان ويدفعه عنك، فلا يلقي إليك خاطر السوء خيفة من اشتغالك بالدعاء والمراعاة.

وإذا تحققت هفوة مسلم، فانصحه في السر.

واعلم: أن من ثمرات سوء الظن التجسس، فإن القلب لا يقنع بالظن، بل يطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس، وذلك منهي عنه، لأنه يوصل إلى هتك ستر المسلم، ولو لم ينكشف لك، كان قلبك أسلم للمسلم.

الأعذار المرخصة في الغيبة

إعلم: أن المرخص في ذكر مساوىء الغير، هو غرض صحيح في الشرع لا يمكن التوصل إليه إلا بالغيبة، وذلك يدفع إثم الغيبة، وهو أمور:

أحدها: التظلم، فإن للمظلوم أن يذكر الظالم إذا استعداه إلى من يستوفي حقه.

الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر، ورد الظالم إلى منهاج الصلاح.

الثالث: الاستفتاء، مثل أن يقول للمفتي: ظلمني فلان، أو أخذ حقي، فكيف طريقي في الخلاص، فالتعيين مباح، والأولى التعريض، وهو أن يقول: ما تقول في رجل ظلمه أبوه أو أخوه ونحو ذلك؟.

والدليل على إباحة التعيين حديث هند حين قالت: إن أبا سفيان رجل شحيح ولم ينكر عليها النبي صلى الله عليه وآله وسلم[1].

الأمر الرابع: تحذير المسلمين، مثل أن ترى متفقهاً يتردد إلى مبتدع أو فاسق، وتخاف أن يتعدى إليه ذلك، فلك أن تكشف له الحال.

وكذلك إذا عرفت من عبدك السرقة أو الفسق، فتذكر ذلك للمشتري.

وكذلك المستشار في التزويج وإيداع الأمانة، له أن يذكر ما يعرفه على قصد النصح للمستشير، لا على قصد الوقيعة، إذا علم أنه لا ينزجر إلا بالتصريح.

الخامس: أن يكون معروفاً بلقب، كالأعرج، والأعمش، فلا إثم على من يذكره به، وإن وجد عن ذلك معدلاً كان أولى.

السادس: أن يكون مجاهراً بالفسق، ولا يستنكف أن يذكر به.

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له»[2].

وقيل للحسن: الفاجر المعلن بفجوره، ذكري له بما فيه غيبة؟ قال: لا، ولا كرامة.

---

(١) متفق عليه من حديث عائشة.

(٢) أخرجه ابن عدي وأبو الشيخ في الأعمال، وابن حبان في الضعفاء. والخرائطي في مساوىء الأخلاق. والبيهقي في «السنن» و «الشعب» والديلمي، والخطيب، وابن عساكر، وفي سنده عندهم رواد بن الخراج اختلط في آخر عمره فترك. وقال ابن عدي: عامة ما يرويه لا يتابعه عليه الناس. وقد ضعف حديثه هذا الحافظان البيهقي والعراقي.

كفـارة الغيبـة

وأما كفارة الغيبة، فاعلم أن المغتاب قد جنى جنايتين:

إحداهما: على حق الله تعالى، إذ فعل ما نهاه عنه، فكفارة ذلك التوبة والندم.

والجناية الثانية: على محارم المخلوق، فإن كانت الغيبة قد بلغت الرجل، جاء إليه واستحله، وأظهر له الندم على فعله.

وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من كانت عنده مظلمة لأخيه، من مال أو عرض، فليأته فليستحلها منه قبل أن يؤخذ وليس عنده درهم ولا دينار، فإن كانت له حسنات أخذ من حسناته، فأعطيها هذا، وإلا أخذ من سيئات هذا فألقي عليه»[1].

وإن كانت الغيبة لم تبلغ الرجل، جعل مكان استحلاله الاستغفار له، لئلا يخبره بما لا يعلمه، فيوغر صدره.

وقال مجاهد: كفارة أكلك لحم أخيك أن تثني عليه وتدعو له بخير، وكذلك إن كان قد مات.

النميمـة

الآفة التاسعة: من آفات اللسان: النميمة، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا يدخل الجنة قتات» وهو النمام.

واعلم: أن النميمة تطلق في الغالب على نقل قول إنسان في إنسان، مثل أن يقول: قال فيك فلان كذا وكذا، وليست مخصوصة بهذا، بل حدها كشف ما يكره كشفه، سواء كان من الأقوال أو الأعمال، حتى لو رآه يدفن مالاً لنفسه فذكره، فهو نميمة. وكل من نقلت إليه النميمة، مثل أن يقال له: قال فيك فلان كذا وكذا، أو فعل في حقك كذا، ونحو ذلك، فعليه ستة أشياء:

---

(١) متفق عليه عن أبي هريرة.

الأول: أن لا يصدق الناقل، لأن النمام فاسق مردود الشهادة.

الثاني: أن ينهاه عن ذلك وينصحه.

الثالث: أن يبغضه في الله، فإنه بغيض عند الله.

الرابع: أن لا يظن بأخيه الغائب السوء.

الخامس: أن لا يحمله ما حكي له على التجسس والبحث، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾ [الحجرات: ١٢].

السادس: أن لا يرضى لنفسه ما نهى النمام عنه، فلا يحكي نميمته.

قال يحيى بن كثير: يفسد النمام في ساعة ما لا يفسد الساحر في شهر.

كلام ذي اللسانين

الآفة العاشرة: كلام ذي اللسانين الذي يتردد بين المتعادين، وينقل كلام كل واحد إلى الآخر، ويكلم كل واحد بكلام يوافقه، أو يعده أنه ينصره، أو يثني على الواحد في وجهه ويذمه عند الآخر.

وفي الحديث: «إن شر الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه»[1].

واعلم: أن هذا فيمن لم يضطر إلى ذلك، فأما إذا اضطر إلى مداراة الأمراء جاز.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: إنا لنكشر[2] في وجوه أقوام، وإن قلوبنا لتلعنهم. ومتى قدر أن لا يظهر موافقتهم لم يجز له.

---

(١) متفق عليه بمعناه.

(٢) التكشير: التبسم، والخبر علقه البخاري في «صحيحه» عن أبي الدرداء.

المـدح

الآفة الحادية عشرة: المدح، وله آفات:

منها: ما يتعلق بالمادح.

ومنها: ما يتعلق بالممدوح. فأما آفات المادح، فقد يقول ما لا يتحققه، ولا سبيل لاطلاع عليه، مثل أن يقول: إنه ورع وزاهد، وقد يفرط في المدح فينتهي إلى الكذب، وقد يمدح من ينبغي أن يذم.

وقال الحسن: من دعا لظالم بالبقاء، فقد أحب أن يعصي الله.

وأما الممدوح، فإنه يحدث فيه كبراً أو إعجاباً، وهما مهلكان، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما سمع رجلاً يمدح رجلاً: «ويلك، قطعت عنق صاحبك». الحديث وهو مشهور[1].

وقد روينا عن الحسن قال: كان عمر رضي الله عنه قاعداً ومعه الدِّرة والناس حوله، إذ أقبل الجارود فقال رجل: هذا سيد ربيعة، فسمعها عمر رضي الله عنه ومن حوله، وسمعها الجارود، فلما دنا منه خفقه[2] بالدِّرة، فقال: مالي ولك يا أمير المؤمنين؟ قال: مالي ولك، أما سمعتها؟ قال: سمعتها، فمه؟ قال: خشيت أن يخالط قلبك منها شيء فأحببت أن أطأطئ[3] منك» ولأن الإنسان إذا أثني عليه بالخير رضي عن نفسه، وظن أنه قد بلغ المقصود، فيفتر عن العمل، ولهذا قال: «قطعت عنق صاحبك...».

فأما إذ سلم المدح من هذه الآفات لم يكن به بأس، فقد أثنى النبي صلى الله عليه وآله وسلم على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وغيرهما من الصحابة رضي الله عنهم.

---

(١) متفق عليه من أبي بكرة بنحوه.
(٢) خفقه يخفقه: يضم الفاء وكسرها: ضربه.
(٣) أي أخفض منك.

وعلى الممدوح أن يكون شديد الاحتراز من آفة الكبر والعجب والفتور عن العمل، ولا ينجو من هذه الآفات إلا أن يعرف نفسه، ويتفكر في أن المادح لو عرف منه ما يعرف من نفسه ما مدحه.

وقد روي أن رجلاً من الصالحين أثني عليه، فقال: اللهم إن هؤلاء لا يعرفونني وأنت تعرفني..

الخطأ في فحوى الكلام

الآفة الثانية عشرة: الخطأ في فحوى الكلام فيما يرتبط في أمور الدين، لا سيما فيما يتعلق بالله تعالى، ولا يقدر على تقويم اللفظ بذلك إلا العلماء الفصحاء، فمن قصر في علم أو فصاحة، لم يخل كلامه عن الزلل، لكن يعفو الله عنه لجهله.

مثال ذلك ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «لا يقل أحدكم: ما شاء الله وشئت، ولكن ليقل، ما شاء الله ثم شئت»[1]، وذلك لأن في العطف المطلق تشريكاً وتسوية، وقريب من ذلك إنكاره على الخطيب قوله: «ومن يعصهما فقد غوى» وقال: «قل: ومن يعص الله ورسوله»[2].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، كلكم عبيد الله، وكل نسائكم إماء الله، ولكن ليقل، غلامي وجاريتي»[3].

وقال النخعي: إذا قال الرجل للرجل: يا حمار، يا خنزير، قيل له يوم القيامة: أرأيتني خلقته حماراً، أو أرأيتني خلقته خنزيراً.

فهذا وأمثاله مما يدخل في الكلام الخطأ، ولا يمكن حصره، ومن تأمل

---

(١) وفي هذا الحديث دليل على أن المرء مؤاخذ بلفظه كما هو مؤاخذ بنيته، ولذا يجب على المسلم أن يخص الله بالعبادة والدعاء والتوكل والاستعانة. أخرجه أبو داود والنسائي بسندٍ صحيح.
(٢) أخرجه مسلم من حديث عدي بن حاتم.
(٣) رواه مسلم.

ما أوردناه في آفات اللسان، علم أنه إذا أطلق لسانه لم يسلم، وعند ذلك يعرف سر قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «من صمت نجا»[1]، لأن هذه الآفات مهالك وهي على طريق المتكلم، فإن سكت سلم.

سؤال العوام عن صفات الله عزّ وجلّ

ومن آفات العوام سؤالهم عن صفات الله سبحانه وتعالى وكلامه.

اعلم: أن الشيطان يخيل إلى العامي أنك بخوضك في العلم تكون من العلماء وأهل الفضل، .فلا يزال يحبب إليه ذلك حتى يتكلم بما هو كفر وهو لا يدري. قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «يوشك الناس أن يسألوا، حتى يقولوا: هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟»[2] فسؤال العوام عن غوامض العلم من أعظم الآفات، وبحثهم عن معاني الصفات مما يفسدهم لا مما يصلحهم، إذ الواجب عليهم التسليم، فالأولى بالعامي الإيمان بما ورد به القرآن، ثم التسليم لما جاء به الرسول من غير بحث، واشتغالهم بالعبادات، فإن اشتغالهم بالبحث عن أسرار العلم، كبحث سائمة الدواب عن أسرار الملك.

* * *

---

(١) أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو بسند ضعيف والطبراني بسند جيد.
(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

كتاب ذم الغضب والحقد والحسد

إعلم: أن الغضب شعلة من النار، وأن الإنسان ينزع فيه عند الغضب عرق إلى الشيطان اللعين، حيث قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] فإن شأن الطين السكون والوقار، وشأن النار التلظي والاشتعال، والحركة والاضطراب.

ومن نتائج الغضب: الحقد والحسد، ومما يدل على ذم الغضب قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم للرجل الذي قال له: أوصني، قال: «لا تغضب»، فردد عليه مراراً، قال: «لا تغضب»[١].

وفي حديث آخر أن ابن عمر رضي الله عنه سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ماذا يبعدني من غضب الله عزّ وجلّ؟ قال: «لا تغضب»[٢].

وفي المتفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ليس الشديد بالصُّرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب».

والناس في قوة الغضب على درجات ثلاث: إفراط، وتفريط، واعتدال. فلا يحمد الإفراط فيها لأنه يخرج العقل والدين عن سياستهما، فلا يبقى للإنسان مع ذلك نظر ولا فكر ولا اختيار.

والتفريط في هذه القوة أيضاً مذموم لأنه يبقى لا حمية له ولا غيرة، ومن فقد الغضب بالكلية عجز عن رياضة نفسه إذ الرياضة إنما تتم بتسليط

---

(١) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة.
(٢) الطبراني في مكارم الأخلاف وابن عبد البر في التمهيد بإسناد حسن.

الغضب على الشهوة، فيغضب على نفسه عند الميل إلى الشهوات الخسيسة. ففقد الغضب مذموم، فينبغي أن يطلب الوسط بين الطريقين.

الأسباب المهيجة للغضب
وذكر علاج الغضب

قد عرفت أن علاج كل علة بحسم مادتها وإزالة أسبابها.

فمن أسبابه: العجب، والمزاح، والمماراة، والمضادة، والغدر، وشدة الحرص على فضول المال والجاه، وهذه أخلاق رديئة مذمومة شرعاً، فينبغي أن يقابل كل واحد من هذه بما يضاده، فيجتهد على حسم مواد الغضب وقطع أسبابه.

وأما إذا هاج الغضب فيعالج بأمور:

منها: أن يتفكر في الأخبار الواردة في فضل كظم الغيظ، والعفو، والحلم، والاحتمال، كما جاء في البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، أن رجلاً استأذن على عمر رضي الله عنه، فأذن له، فقال له: يا ابن الخطاب، والله ما تعطينا الجزل[1]، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر رضي الله عنه، حتى همَّ أن يُوقِعَ به[2]. فقال الحر بن قيس: يا أمير المؤمنين إن الله عزّ وجلّ قال لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وإن هذا من الجاهلين، فوالله ما جاوزها عمر رضي الله عنه حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله عزّ وجلّ.

وينبغي أن يكظم غيظه فذلك يعظمه عند الله تعالى، فماله وللناس؟ أفلا يحب أن يكون هو القائم يوم القيامة إذا نودي: ليقم من وقع أجره على

---

(١) أي: الكثير من العطية، يقال، عطاء جزل وجزيل.
(٢) أي ينزل به ما يسؤوه.

الله، فلا يقوم إلا من عفى فهذا وأمثاله ينبغي أن يقرره في قلبه.

ومنها: أن يعلم أن غضبه إنما كان عن شيء جرى على وفق مراد الله تعالى لا على وفق مراده فكيف يقدِّم مراده على مراد الله تعالى.

ومنها: أن يسكن ويتعوذ ويغيِّر حاله، فإن كان قائماً جلس، وإن كان جالساً اضطجع وقد أمرنا بالوضوء أيضاً عند الغضب[1]. وهذه الأمور قد وردت بها الأحاديث.

كظم الغيظ

قال الله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] فذكر ذلك في معرض المدح.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يخيره من أي الحور شاء»[2].

وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: من اتقى الله لم يشف غيظه، ومن خاف الله لم يفعل ما يريد، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون.

الحلم

روى أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إنما العلم بالتعلم، والحلم بالتحلم»[3].

---

(١) وذلك بقوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فيما رواه أحمد في المسند ٤/ ٣٣٦ «إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خلق من النار، وإنما تُطْفَأ النارُ بالماء فإذا غضب أحدكم فليتوضأ».

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه عن أنس.

(٣) أخرجه أحمد ٣/ ٦١، والترمذي (٢١٩٢) ضمن حديث مطول، وفي سنده علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف. لكن له طريق آخر يتقوى به أخرجه الخطيب البغدادي في «تاريخه» ٩/ ١٢٧ بسند قابل للتحسين وشاهد بنحوه من حديث معاوية أخرجه الطبراني في «الكبير» كما في«المجمع» ١/ ١٢٨ وفي سنده رجل لم يسم.

وقال ﷺ «اطلبوا العلم، واطلبوا مع العلم السكينة والحلم، لينوا لمن تُعَلِّمون ولمن تعلمون منه ولا تكونوا من جبابرة العلماء فيغلب جهلكم علمكم»[1].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم لأشج بن قيس: «إن فيك خلقين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة[2].

وشتم رجل ابن عباس رضي الله تعالى عنه فلما قضى مقالته قال: يا عكرمة، أنظر هل للرجل حاجة فنقضيها؟ فنكس الرجل رأسه واستحيى[3].

العفو والرفق

اعلم: أن معنى العفو أن تستحق حقاً فتسقطه، وتتنازل عنه من قصاص أو غرامة، وهو غير الحلم والكظم، وقال الله تعالى: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤] وقال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «ما نقصت صدق من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[4].

وعن عقبة بن عامر، قال. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يا عقبة، ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة؟ تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك»[5].

روي أن منادياً ينادي يوم القيامة: ليقم من وقع أجره على الله؟ فلا يقوم إلا من عفا عمن ظلمه.

---

(١) قال أبو الحافظ العراقي: رواه ابن السنى في «رياضة المتعلمين» بسند ضعيف.
(٢) الأناة: الحلم، والوقار.
(٣) . متفق عليه.
(٤) رواه مسلم عن أبي هريرة.
(٥) قال الحافظ العراقي. رواه ابن أبي الدنيا، والطبراني في «مكارم الأخلاق» والبيهقي في «الشعب» بإسناد ضعيف.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف»[1].

وفي «الصحيحين» من حديث عائشة رضي الله عنها، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إن الله عزّ وجلّ يحب الرفق في الأمر كله».

وفي حديث آخر «من يحرم الرفق حرم الخير»[2].

الحقد والحسد

اعلم: أن الغيظ إذا كظم لعجز عن التشفي في الحال رجع إلى الباطن، فاحتقن فيه فصار حقداً.

وعلامته دوام بغض الشخص واستثقاله والنفور منه، فالحقد ثمرة الغضب، والحسد من نتائج الحقد.

وفي «الصحيحين» عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «لا تباغضوا، ولا تقاطعوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً».

عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب» أو قال: «العشب»[3].

عن أنس رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يطلع عليكم من هذا الفج رجل من أهل الجنة، فطلع رجل، فسئل عن عمله، فقال: إني لا أجد لأحد من المسلمين في نفسي غشاً ولا حسداً على خير أعطاه الله إياه»[4].

---

(١) رواه مسلم من حديث عائشة.
(٢) رواه مسلم من حديث جرير.
(٣) رواه أبو داود.
(٤) قال الحافظ العراقي: رواه أحمد بإسناد صحيح على شرط الشيخين، ورواه البزار، وسمى الرجل في رواية له سعدا، وفيها ابن لهيعة.

وعلاج الحسد تارة بالرضى بالقضاء وأن يعلم أن حكمة الله تعالى اقتضت جعل هذا الفضل في هذا الإنسان فلا يعترض ولا يكره ما اقتضته الحكمة، وتارة بالزهد في الدنيا، وتارة بالنظر فيما يتعلق بتلك النعم من همومِ الدنيا وحساب الآخرة، فيتسلى بذلك ولا يعمل بمقتضى ما في النفس أصلاً ولا ينطق، فإذا فعل ذلك لا يضره ما وضع في جبلته.

فأما من يحسد نبياً على نبوته، فيُحِبُّ أن لا يكون نبياً، أو عالماً على علمه، فيؤثر أن لا يرزق ذلك أو يزول عنه، فهذا لا عذر له، ولا تجبل عليه إلا النفوس الكافرة أو الشريرة، فأما إن أحب أن يسبق أقرانه، ويطلع على ما لم يدركوه، فإنه لا يأثم بذلك، فإنه لم يؤثر زوال ما عندهم عنهم، بل أحب الارتفاع عنهم ليزيد حظه عند ربه، كما لو استبق عبدان إلى خدمة مولاهما، فأحب أحدهما أن يسبق. وقد قال الله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وفي «الصحيحين» من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «لا حسد إلا في اثنين: رجل آتاه الله عزّ وجلّ القرآن، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه في الحق آناء الليل وآناء النهار».

وأما العمل النافع في الحسد فهو أن يتكلف نقيض ما يأمر به الحسد، فإذا بعثه على الحقد والقدح في المحسود كلّف نفسه المدح له، والثناء عليه، وإن حمله على الكبر ألزم نفسه التواضع له، وإن بعثه على كف الإنعام عنه ألزم نفسه زيادة في الأنعام.

ذم الدنيـا

الآيات الواردة في القرآن العزيز بعيب الدنيا، والتزهيد فيها، وضرب الأمثال لها كثيرة، كقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن

ذَٰلِكُمْ ﴿١٥﴾﴾ [آل عمران: ١٤، ١٥]، وقوله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية[يونس: ٢٤]، وقوله: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾ [الحديد: ٢٠]، وقوله: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٥]، وقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ ﴿٣٠﴾﴾ [النجم: ٢٩، ٣٠].

وأما الأحاديث، ففي «الصحيحين» من رواية المسور بن شداد، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم، فلينظر بم ترجع؟».

وفي حديث آخر: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[1].

وفي حديث آخر: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء»[2].

وفي حديث اخر: «الدنيا معلونه ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها»[3].

وروى أبو موسى، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من أحب دنياه، أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى»[4].

قيل مثل طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى يقتله.

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه الترمذي وصححه
(٣) أخرجه الترمذي وحسنه.
(٤) أخرجه الحاكم وصححه وأورده الهيثمي في المجمع وقال: رواه الطبراني في «المعجم الكبير» ورجاله ثقات.

بيان حقيقة الدنيا والمذموم منها والمحمود

اعلم: أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة للإنسان فيها حظ، وهي الأرض وما عليها، فإن الأرض مسكن الآدمي، وما عليها ملبس ومطعم ومشرب ومنكح، وكل ذلك علف لراحلة بدنه السائر إلى الله عزّ وجلّ، فإنه لا يبقى إلا بهذه المصالح، كما لا تبقى الناقة في طريق الحج إلا بما يصلحها، فمن تناول منها ما يصلحه على الوجه المأمور به مدح، ومن أخذ منها فوق الحاجة يبعثه الشره وقع في الذم، فإنه ليس للشره في تناول الدنيا وجه، لأنه يخرج عن النفع إلى الأذى، ويشغل عن طلب الآخرة فيفوت المقصود، ويصير بمثابة من أقبل يعلف الناقة، ويرد لها الماء، ويغير عليها ألوان الثياب، وينسى أن الرفقة قد سارت، فإنه يبقى في البادية فريسة للسباع هو وناقته.

ولا وجه أيضاً للتقصير في تناول الحاجة، لأن الناقة لا تقوى على السير إلا بتناول ما يصلحها، فالطريق السليم هي الوسطى، وهي أن يؤخذ من الدنيا قدر ما يحتاج إليه من الزاد للسلوك وإن كان مشتهى، فإن إعطاء النفس ما تشتهيه عون لها وقضاء لحقها.

وقد كان سفيان الثوري يأكل في أوقات من طيب الطعام، ويحمل معه في السفر الفالوذج.

وكان إبراهيم بن أدهم يأكل من الطيبات في بعض الأوقات، ويقول: إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال، وإذا فقدنا صبرنا صبر الرجال.

ولينظر في سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصحابته، فإنهم ما كان لهم إفراط في تناول الدنيا، ولا تفريط في حقوق النفس.

وينبغي أن يتلمح حظ النفس في المشتهى، فإن كان في حظها حفظها وما يقيمها ويصلحها وينشطها للخير، فلا يمنعها منه، وإن كان حظها مجرد شهوة ليست متعلقة بمصالحها المذكورة فذلك حظ مذموم، الزهد فيه يكون.

ذم البخل والحرص والطمع
وذم المال ومدحه ومدح القناعة والسخاء، ونحو ذلك

اعلم: أن المال لا يذم لذاته بل يقع الذم لمعنى من الآدمي، وذلك المعنى إما شدة حرصه أو تناوله من غير حلِّه، أو حبسه عن حقه، أو إخراجه في غير وجهه، أو المفاخرة به، ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨].

وفي «سنن الترمذي» عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم، بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»(١).

وقد كان السلف يخافون من فتنة المال. وكا ن عمر رضي الله عنه إذا رأى الفتوح يبكي ويقول: ما حبس الله هذا عن نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وعن أبي بكر لشرٍّ أراده الله بهما، وأعطاه عمر إرادة الخير له.

وقال يحيى بن معاذ: الدرهم عقرب، فإن لم تحسن رقيته فلا تأخذه، فإنه إن لدغك قتلك سمه. قيل: ما رقيته؟ قال: أخذه منْ حلِّه ووضعه في حقه. وقال: مصيبتان للعبد في ماله عند موته لا تسمع الخلائق بمثلهما، قيل: ما هما؟ قال: يؤخذ منه كله، ويسأل عنه كله.

مدح المال وبيان غوائله

قد بينا أن المال لا يذم لذاته بل ينبغي أن يمدح، لأنه سبب للتوصل إلى مصالح الدين والدنيا، وقد سماه الله تعالى خيراً، وهو قوام الآدمي. قال الله تعالى في أول سورة النساء: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء: ٥].

وقال سعيد بن المسيب رحمه الله: لا خير فيمن لا يريد جمع المال من

---

(١) أخرجه الترمذي من حديث كعب بن مالك وقال حسن صحيح.

حله، يكف به وجهه عن الناس، ويصل به رحمه، ويعطي منه حقه.

وقال أبو إسحاق السبيعي: كانوا يرون السعة عوناً على الدين.

وقال سفيان: المال في زماننا هذا سلاح المؤمنين.

وحاصل الأمر؛ أن المال مثل حية فيها سم وترياق، فترياقه فوائده، وغوائله سمه، فمن عرف فوائده وغوائله، أمكنه أن يحترز من شره، ويستدر من خيره.

أما فوائده، فتنقسم إلى دنيوية ودينية: وكذلك غوائله.

أما فوائده الدنيوية، فالخلق يعرفونها، ولذلك تهالكوا في طلبها وأما الدينية فواضحة أيضاً.

وأما غوائله الدينية فثلاث:

الأولى: أنه يجر إلى المعاصي غالباً لأن من استشعر القدرة على المعصية انبعثت داعيته إليها.

الثانية: أنه يتحرك إلى التنعم في المباحات حتى تصير له عادة وإلفاً فلا يصبر عنها وربما لم يقدر على استدامتها إلا بكسب فيه شبهة أو حرام فيقتحم الشبهات والمحرمات ويترقى إلى آفات من المداهنة والنفاق لأن من كثر ماله خالط الناس وإذا خالطهم لم يسلم من نفاق وعداوة وحسد وغيبة، وكل ذلك من الحاجة إلى إصلاح المال.

الثالثة: وهي التي لا ينفك منها أحد، هي أن يلهيه ماله عن ذكر الله تعالى، وهذا هو الداء العضال فإن أصل العبادات ذكر الله تعالى والتفكر في جلاله وعظمته وذلك يستدعي قلباً فارغاً.

ومن له قوت يوم بيوم فهو في سلامة من جميع ذلك، وهذا سوى ما يقاسيه أرباب الأموال في الدنيا من الخوف والحزن والهم والغم والتعب.

فإذاً ترياق المال أخذ القوت منه، وصرف الباقي إلى الخيرات، وما عدا ذلك سموم وآفات.

ذم الحرص والطمع ومدح القناعة واليأس

واعلم: أن الفقر محمود، ولكن ينبغي للفقير أن يكون قانعاً، منقطع الطمع عن الخلق، غير ملتفت إلى ما في أيديهم، ولا حريص على اكتساب المال كيف كان، ولا يمكنه ذلك إلا أن يقنع بقدر الضرورة من المطعم والملبس.

وقد روي في «صحيح مسلم» عن عمرو بن العاص رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه».

وقال أبو حازم: ثلاث من كن فيه كمل عقله: من عرف نفسه، وحفظ لسانه، وقنع بما رزقه الله عزّ وجلّ.

أما الحرص، فقد نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «أيها الناس، أجملوا في الطلب، فإنه ليس للعبد إلا ما كتب له»[1].

وقيل: الطمع يذل الأمير، واليأس يعز الفقير.

البخل وذمه

عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «خصلتان لا تجتمعان في مؤمن: البخل وسوء الخلق»[2].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبداً»[3].

وفي أفراد مسلم، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الجبن والبخل».

---

(١) رواه الحاكم من حديث جابر بنحوه وصحح إسناده.
(٢) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٢٨٢) والترمذي في «سننه» (١٩٦٣) من حديث أبي سعيد الخدري وفي سنده صدقة بن موسى الدقيقي وهو ضعيف.
(٣) رواه النسائي وفي إسناده اختلاف.

وروى جابر رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لبني سلمة: «من سيدكم؟ قالوا: الجد بن قيس على أننا نبخِّله، قال: وأي داء أدوأ من البخل؟ بل سيدكم بشر بن البراء بن معرور» وهي أصح من ذكر عمرو بن الجموح، وغلط بعض الرواة، فقال: البراء بن معرور، البراء مات قبل الهجرة[1].

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ثلاث مهلكات؛ شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه»[2].

قال الخطابي: الشح في المنع أبلغ من البخل.

فضل الإيثار وبيانه

اعلم: أن السخاء والبخل درجات.

فأرفع درجات السخاء الإيثار، وهو أن تجود بالمال مع الحاجة إليه.

وأشد درجات البخل، أن يبخل الإنسان على نفسه مع الحاجة، فكم من بخيل يمسك المال، ويمرض فلا يتداوى، ويشتهي الشهوة فيمنعه منها البخل.

فكم بين من يبخل على نفسه مع الحاجة، وبين من يؤثر على نفسه مع الحاجة، فالأخلاق عطايا يضعها الله عزّ وجلّ حيث يشاء.

وليس بعد الإيثار درجة في السخاء. وقد أثنى الله تعالى على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالإيثار، فقال: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

واستشهد باليرموك عكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، وجماعة من بني المغيرة، فأتوا بماء وهم صرعى، فتدافعوه حتى ماتوا ولم يذوقوه.

---

(١) أخرجه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم.
(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط قال الألباني في صحيح الجامع الصغير حسن.

أتي عكرمة بالماء فنظر إلى سهيل بن عمرو ينظر إليه، فقال: إبدأ بهذا، ونظر سهيل إلى الحارث ينظر إليه، فقال: إبدأ بهذا، وكل منهم يؤثر الآخر على نفسه بالشربة، فماتوا كلهم قبل أن يشربوا، فمر بهم خالد بن الوليد فقال: بنفسي أنتم.

واعلم: أن علاج كل علة بمضادة سببها.

فيعالج حب الشهوات بالقناعة والصبر، وطول الأمل بكثرة ذكر الموت.

ويعالج التفات القلب إلى الولد، بأن من خلقه خلق معه رزقه، وكم ممن لم يرث شيئاً أحسن حالاً ممن ورث.

فليحذر أن يترك لولده الخير، ويقدم على الله بشر، فإن ولده إن كان صالحاً فالله يتولاه، وإن كان فاسقاً فلا يترك له ما يستعين به على المعاصي، وليردد على سمعه ما ذكرناه في ذم البخل ومدح السخاء.

اعلم: أنه إذا كثرت المحبوبات في الدنيا، كثرت المصائب بفقدها، فمن عرف آفة المال لم يأنس به، ومن لم يأخذ منه إلا قدر حاجته، وأمسك ذلك لحاجته فليس ببخيل، والله أعلم.

كتاب ذم الجاه والرياء

وعلاجهما وفضيلة الخمول وغير ذلك

روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه خرج من منزله، فتبعه جماعة، فالتفت إليهم وقال: علام تتبعوني؟ فوالله لو علمتم ما أغلق عليه بابي ما اتبعني منكم رجلان.

وفي لفظ آخر أنه قال: ارجعوا، فإنه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع.

وكان أبو العالية رحمه الله إذ جلس إليه أكثر من أربعة قام.

وكان خالد بن معدان رحمه الله إذا عظمت حلقته، قام وانصرف كراهة الشهرة.

وقال الزهري رحمه الله: ما رأينا الزهد في شيء أقل منه في الرياسة، نرى الرجل يزهد في المطعم والمشرب والمال، فإذا نوزع الرياسة، حامى عليها وعادى.

ولذا قيل: آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حب الرياسة.

فإن قيل: هذا فيه فضيلةُ الخمول، وذم الشهرة، وأي شهرة أكثر من شهرة الأنبياء، وأئمة العلماء؟!.

قلنا: المذموم طلب الإنسان الشهرة، وأما وجودها من جهة الله تعالى من غير طلب الإنسان فليس بمذموم، غير أن في وجودها فتنة على الضعفاء، فإن مثل الضعيف كالغريق القليل الصنعة بالسباحة إذا تعلق به أحد غرق وغرقه فأما السابح النحرير فإن تعلقَ الغرقى به سبب لنجاتهم وخلاصهم.

وأما سعة الجاه من غير حرص على طلبه، ومن غير اغتمام بزواله إن زال فلا ضرر فيه إذ لا جاه أوسع من جاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وعلماء الدين بعده، ولكن انصراف الهم إلى طلب الجاه نقصان في الدين، ولا يوصف بالتحريم.

وتحسين الثوب الذي يلبسه الإنسان عند الخروج إلى الناس، ليراه الناس، وكذلك كل تجمل لأجلهم لا يقال: إنه منهي عنه.

وقد تختلف المقاصد بذلك فإن أكثر الناس يحبون أن لا يروا بعين نقص في حال.

وفي أفراد مسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» فقال رجل: أن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة فقال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس».

ومن الناس من يؤثر إظهار نعمة الله تعالى عليه، وقد أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بذلك.

بيان الرياء وحقيقته، ودوائه

وقد ورد ذم الرياء في الكتاب والسنّة، من ذلك قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦﴾ [الماعون: ٤ ـ ٦] وقوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وأما الأحاديث: فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فيما يرويه عن ربه عزّ وجلّ أنه قال: «من عمل عملاً أشرك فيه غيري، فهو للذي أشرك، وأنا منه بريء»[1].

---

(١) أخرجه ابن ماجه بسند صحيح.

وفي حديث آخر: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر. قالوا: يا رسول الله: وما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء، يقول الله عزّ وجلّ لهم يوم القيامة إذا جزي الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، هل تجدون عندهم خيراً»[1].

اعلم أن أصل الرياء حب الجاه والمنزلة، وإذا فصل، رجع إلى ثلاثة أصول.

وهي حب لذة الحمد، والفرار من ألم الذم، والطمع فيما في أيدي الناس.

ويشهد لذلك ما في «الصحيحين» من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله، أرأيت الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، فأي ذلك في سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله».

فمعنى قوله: «يقاتل شجاعة» ليذكر ويحمد، ومعنى قوله «يقاتل حمية» يأنف أن يقهر أو يذم، ومعنى «يقاتل رياء» ليرى مكانه، وهذا هو لذة الجاه والمنزلة في القلوب.

وقد تقدم في باب الإخلاص أن الرياء جلي وخفي وأن كُلاًّ منهما درجات، ومنه ما هو أخفى من دبيب النملة فليراجع فإنه مهم.

وحاصله أنه ما دام العامل يفرق بين مشاهدة الإنسان والبهيمة في حال العمل فهو خارج عن صفو الإخلاص، ولا يسلم من الرياء الخفي إلا من دق نظره وسعد بعصمة الله وتأييده.

وقد قيل: ركعتان من عالم أفضل من سبعين ركعة من جاهل، وأريد به العالم بدقائق آفات الأعمال حتى يتخلص منها، والجاهل ينظر إلى ظاهر العبادة.

---

(١) أخرجه أحمد والبيهقي في الشعب قال العراقي ورجاله ثقات.

وقيراط من الذهب الذي يرتضيه الناقد خير من دينار يرتضيه الغر الغبي.

ومن الدواء النافع أن يعود نفسه إخفاء العبادة وإغلاق الأبواب دونها كما تغلق دون الفواحش فإنه لا دواء لداء الرياء مثل إخفاء الأعمال، ولم يزل الصالحون حريصين على إخفاء أعمالهم الصالحة أعظم مما يحرص الناس على إخفاء فاحشهم رجاء أن تخلص أعمالهم من الرياء الخفي.

أقول: ومن الدواء النافع أيضاً أن يعلم أن الخلق لا ينفعونه ولا يضرونه حقيقة فلا يتشاغل بمراعاتهم فيتعب نفسه ويضر دينه ويحبط عمله، ويرتكب ما يجلب سخط الله تعالى، ويفوت رضاه.

بيان الرخصة في قصد إظهار الطاعات وبيان الرخصة في كتمان الذنوب، وكراهة اطلاع الناس على الذنب وذمهم له

أما الأول، فاعلم أن في إسرار الأعمال فائدة الإخلاص والنجاة من الرياء، وفي الإظهار فائدة الاقتداء، وترغيب الناس في الخير.

ومن الأعمال ما لا يمكن الإسرار به كالحج والجهاد.

والمظهر للعمل ينبغي أن يراقب قلبه، حتى لا يكون فيه حب الرياء الخفي، بل ينوي الاقتداء به، ولا ينبغي للضعيف أن يخدع نفسه بذلك، فإن مثال الضعيف مثال الغريق الذي يحسن سباحة ضعيفة، فنظر إلى جماعة من الغرقى فرحمهم، وأقبل عليهم حتى تشبثوا به، فهلكوا وهلك معهم.

فأما من قوي وتم إخلاصه، وصغر الناس في عينه، واستوى عنده مدحهم وذمهم، فلا بأس بالإظهار له، لأن الترغيب في الخير خير، وقد روى ذلك عن جماعة من السلف أنهم كانوا يظهرون شيئاً من أحوالهم الشريفة ليقتدى بهم.

وأما الرخصة في كتمان الذنوب، فربما ظن ظانٌّ أن كتمان الخطايا رياء، وليس كذلك فإن الصادق الذي لا يرائي إذا وقعت منه معصية، كان له سترها، لأن الله يكره ظهور المعاصي ويحب سترها.

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من ارتكب شيئاً من هذه القاذورات، فليستتر بستر الله عزّ وجلّ»[1].

فهذا وإن عصى بالذنب، لم يخل قلبه عن محبة ما أحبه الله عزّ وجلّ، وهذا ينشأ عن قوة الإيمان.

ترك الطاعات خوفاً من الرياء

فأما ترك الطاعات خوفاً من الرياء، فإن كان الباعث له على الطاعة غير الدين، فهذا ينبغي أن يترك، لأنه معصية لا طاعة فيه.

وإن كان الباعث على ذلك الدين، وكان ذلك لأجل الله تعالى خالصاً، فلا ينبغي أن يترك العمل، لأن الباعث الدين.

وكذلك إذا ترك العمل خوفاً من أن يقال: إنه مراء، فلا ينبغي ذلك، لأنه من مكائد الشيطان.

قال إبراهيم النخعي؛ إذا أتاك الشيطان وأنت في صلاة فقال: إنك مراء، فزدها طولاً.

وأما ما روي عن بعض السلف أنه ترك العبادة خوفاً من الرياء، كما روي عن إبراهيم النخعي أن إنساناً دخل عليه وهو يقرأ في المصحف، فأطبق المصحف وترك القراءة، وقال: لا يراني هذا أني أقرأ كل ساعة، فيحمل هذا على أنهم أحسوا من نفوسهم بنوع تزين فقطعوا.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٣٨٣ بمعناه، وصححه ووافقه الذهبي.

ما يصح من نشاط العبد
عند رؤية الخلق وما لا يصح

قد يبيت الرجل مع المتهجدين، فيصلون أكثر الليل، وعادته قيام ساعة، فيوافقهم، أو يصومون فيصوم، ولولاهم ما انبعث هذا النشاط.

فربما ظن ظانٌّ أن هذا رياء، وليس كذلك على الإطلاق، بل فيه تفصيل، وهو أن كل مؤمن يرغب في عبادة الله تعالى، ولكن تعوقه العوائق، وتستهويه الغفلة، فربما كانت مشاهدة الغير سبباً لزوال الغفلة واندفاع العوائق، فإن الإنسان إذا كان في منزله تمكن من النوم على فراش وطيء وتمتع بزوجته، فإذا بات في مكان غريب، اندفعت هذه الشواغل، وحصلت له أسباب تبعث على الخير، منها مشاهدة العابدين.

وقد يعسر عليه الصوم في منزله لكثرة المطاعم، بخلاف غيره، ففي مثل هذه الأحوال ينتدب الشيطان للصد عن الطاعة ، ويقول: إذا عملت غير عادتك كنت مرائياً، فلا ينبغي أن يلتفت إليه، وإنما ينبغي أن ينظر إلى قصده الباطن، ولا يلتفت إلى وسواس الشيطان.

ويختبر أمره بأن يمثل القوم في مكان يراهم ولا يرونه فإن رأى نفسه تسخو بالتعبد فهو لله، وإن لم تسخ كان سخاؤها عندهم رياءً، وقس على هذا.

كتاب ذم الكبر والعجب

وفيه فصلان:

الفصل الأول في الكبر

قال الله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦] وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣].

وفي الحديث الصحيح من أفراد مسلم، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر».

وفي «الصحيحين» عنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «قالت النار: أوثرت بالمتكبرين».

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «يحشر الجبَّارون والمتكبرون يوم القيامة في صورة الذر، يطؤهم الناس لهوانهم على الله عزّ وجلّ»[1].

وقال سفيان بن عيينة رحمه الله: من كانت معصيته في شهوة، فارْجُ له التوبة، فإن آدم عليه السلام عصى مشتهياً فغفر له، فإذا كانت معصيته من كبر، فاخش عليه اللعنة، فإن إبليس عصى مستكبراً فلُعنَ.

وآفة الكبر عظيمة، وفيه يهلك الخواص، وقلما ينفك عنه العباد والزهاد والعلماء.

وكيف لا تعظم آفته، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أنه لا

---

(١) أخرجه البزار قال العراقي وإسناده حسن.

يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر[1].

وإنما صار حجاباً دون الجنة، لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين، لأن صاحبه لا يقدر أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه، فلا يقدر على التواضع، ولا على ترك الحقد والحسد والغضب، ولا على كظم الغيظ وقبول النصح، ولا يسلم من الازدراء بالناس واغتيابهم. فما من خلق ذميم إلا وهو مضطر إليه.

ومن شر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم، وقبول الحق، والانقياد له.

وقد تحصل المعرفة للمتكبر، ولكن لا تطاوعه نفسه على الانقياد للحق، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون: ٤٧] ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠] وآيات كثيرة نحو هذا، وهذا تكبر على الله وعلى رسوله.

وقد تقدم أن التكبر على العباد هو احتقارهم واستعظام نفسه عليهم، وذلك أيضاً يدعو إلى التكبر على أمر الله تعالى، كما حمل إبليس كبره على آدم عليه السلام أن امتنع من امتثال أمر ربه في السجود.

وقد شرح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الكبر فقال: «الكبر: بطر الحق وغمط الناس»[2]. ومعنى غمط الناس: الازدراء بهم، واستحقارهم. ويروى: «غمص الناس» بمعنى غمط الناس.

علامات التكبر

واعلم: أن التكبر يظهر في شمائل الإنسان، كصَعَر وجهه، ونَظَره شزراً، وإطراق رأسه، وجلوسه متربعاً ومتكئاً، وفي أقواله، حتى في صوته ونغمته، وصيغة إيراده الكلام، ويظهر ذلك أيضاً في مشيه وتبختره، وقيامه وقعوده وحركاته وسكناته وسائر تقلباته.

---

(١) رواه مسلم.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه عن ابن مسعود.

ومن خصال المتكبر: أن يحب قيام الناس له.

والقيام على ضربين: قيام على رأسه وهو قاعد، فهذا منهي عنه.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار». وهذه عادة الأعاجم والمتكبرين.

الثاني: قيام عند مجيء الإنسان، فقد كان السلف لا يكادون يفعلون ذلك.

قال أنس: لم يكن شخص أحب إلينا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهته لذلك.

وقد قال العلماء: يستحب القيام للوالدين والإمام العادل، وفضلاء الناس، وقد صار هذا كالشعار بين الأفاضل، فإذا تركه الإنسان في حق من يصلح أن يفعل فيٍ حقه، لم يأمن أن ينسبه إلى إهانته، والتقصير في حقه، فيوجب ذلك حقدا.

واستحباب هذا في حق القائم لا يمنع الذي يقام له أن يكره ذلك، ويرى أنه ليس بأهل لذلك.

ومن خصال المتكبر: أن لا يمشي إلا ومعه أحد يمشي خلفه.

ومنها: أن لا يزور أحداً تكبراً على الناس.

ومنها: أن يستنكف من جلوس أحد إلى جانبه أو مشيه معه.

وقد روى أنس رضي الله عنه قال: كانت الأمة من أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فتنطلق به في حاجتها[1].

وقال ابن وهب: جلست إلى عبد العزيز بن أبي روّاد، وإن فخذي

---

(١) أخرجه البخاري عن أنس بنحوه.

لتمس فخذه فنحيت نفسي عنه. فأخذ ثيابي فجرني إليه وقال: لمَ تفعلون بي ما تفعلون بالجبابرة، وإني لا أعرف منكم رجلاً شرّاً مني؟!.

ومنها: أن لا يتعاطى بيده شغلاً في بيته، وهذا بخلاف ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ومنها: أن لا يحمل متاعه من سوقه إلى بيته، وقد اشترى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً وحمله. وكان أبو بكر رضي الله عنه يحمل الثياب إلى السوق يتجر فيها. واشترى عمر رضي الله عنه لحماً فعلقه بيده وحمله إلى بيته. واشترى علي رضي الله عنه تمراً فحمله في ملحفة، فقال له قائل: أحمل عنك؟ قال: لا، أبو العيال أحق أن يحمل.

وأقبل أبو هريرة رضي الله عنه يوماً من السوق وقد حمل حزمة حطب، وهو يومئذٍ خليفة مروان، فقال لرجل: أوسع الطريق للأمير.

ومن أراد أن ينفي الكبر، ويستعمل التواضع، فعليه بسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد سبقت الإشارة إليها في كتاب «آداب المعيشة».

* * *

معالجة الكبر واكتساب التواضع

اعلم: أن الكبر من المهلكات، ومداواته فرض عين:

وأجدى طرق علاجه استئصال أصله وقطع شجرته، وذلك بأن يعرف الإنسان نفسه ويعرف ربه، فإنه إذا عرف نفسه حق المعرفة، علم أنه أذل من كل ذليل، ويكفيه أن ينظر في أصل وجوده بعد العدم من تراب، ثم من نطفة خرجت من مخرج البول، ثم من علقة، ثم من مضغة، فقد صار شيئاً مذكوراً، بعد أن كان جماداً لا يسمع ولا يبصر، ولا يحس ولا يتحرك، فقد ابتدأ بموته قبل حياته، وبضعفه قبل قوته، وبفقره قبل غناه.

وقد أشار الله تعالى إلى هذا بقوله: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾﴾ [عبس: ١٨، ١٩] ثم امتن عليه بقوله: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ [عبس: ٢٠]، وبقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الدهر: ٢] فأحياه بعد الموت، وأحسن تصويره وأخرجه إلى الدنيا فأشبعه وأرواه، وكساه وهداه وقواه.

فمن هذا بدايته، فأيّ وجه لكبره وفخره؟.

وأما معرفة ربه فيكفيه أن ينظر في آثار قدرته، وعجائب صنعه فتلوح له العظمة، ويظهر له المعرفة، فهذا هو العلاج القالع لأصل الكبر.

ومن العلاج العملي التواضع بالفعل لله تعالى ولعباده، وذلك بالمواظبة على استعمال خلق المتواضعين، وقد تقدمت الإشارة إلى طريقة رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ـ وما كان عليه من التواضع والأخلاق الجميلة.

أقول: ومن العلاج في نفي احتقار الناس التأدب بما أدبنا الله تعالى به قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النجم: ٣٢] وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] فربما كان هذا الذي يراه دونه أتقى لله تعالى وأطهر قلباً، وأخلص نية وأزكى عملاً، ثم إنه لا يعلم ماذا يختم له به، نسأل الله تعالى العافية من كل داء.

ومن العلاج ـ وهو العلاج الأنجع لجميع الأمراض القلبية ـ المواظبة على الأذكار واستعمال أحاديث التسبيح والتهليل ونحوهما من الأذكار والدعوات، وسائر الآداب الشرعية.

الفصل الثاني: في العجب

روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «بينما رجل يتبختر في بردين قد أعجبته نفسه، خسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة»[1].

---

(١) أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة بدل في بردين في حلة.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوىً متبع، وإعجاب المرء بنفسه»[1].

وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: الهلاك في شيئين: العجب، والقنوط. وإنما جمع بينهما لأن السعادة لا تنال إلا بالطلب والتشمير، والقانط لا يطلب، والمعجب يظن أنه قد ظفر بمراده فلا يسعى.

قال مطرف رحمه الله: لأن أبيت نائماً وأصبح نادماً، أحبُّ إليَّ من أن أبيت قائماً وأصبح معجباً.

واعلم: أن العجب يدعو إلى الكبر، لأنه أحد أسبابه، فيتولد من العجب الكبر، ومن الكبر الآفات الكثيرة، وهذا مع الخلق.

فأما مع الخالق، فإن العجب بالطاعات نتيجة استعظامها، فكأنه يمن على الله تعالى بفعلها، وينسى نعمته عليه بتوفيقه لها، ويعمى عن آفاتها المفسدة لها.

وإنما يتفقد آفات الأعمال من خاف ردها دون من رضيها وأعجب بها.

والعجب إنما يكون بوصف كمال من علم أو عمل، فإن انضاف إلى ذلك أن يرى حقاً له عند الله كان إدلالاً، فالعجب يحصل باستعظام ما عجب به، والإدلال يوجب توقع الجزاء، مثل أن يتوقع إجابة دعائه وينكر رده.

علاج العجب

اعلم: أن الله سبحانه هو المنعم عليك بإيجادك وإيجاد أعمالك، فلا معنى لعجب عامل بعمله، ولا عالم بعلمه، ولا جميل بجماله ولا غني بغناه، إذ كل ذلك من فضل الله تعالى، وإنما الآدمي محل لفيض النعم عليه، وكونه محلاً له نعمة أخرى، والكل عارية منه تعالى، فينبغي أن لا يعجب بشيء لم يخترعه وليس مالكاً له، ولا على يقين من دوامه.

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط».

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «لا يدخل أحداً منكم عمله الجنة» قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل».

واعلم أن العجب يكون بالأسباب التي بها يقع الكبر، فيداوى بما يداوى به الكبر.

* * *

كتاب الغرور وأقسامه

ومن الناس من غرته الدنيا، فقال: النقد خير من النسيئة، والدنيا نقد، والآخرة نسيئة، وهذا محل التلبيس، فإن النقد لا يكون خيراً من النسيئة، إلا إذا كان مثل النسيئة. ومعلوم أن عمر الإنسان بالإضافة إلى مدة الآخرة ليس بجزء من ألف جزء إلى أن ينقطع النفس.

ومن العصاة من يغتر فيقول: إن الله تعالى كريم وإنما نتكل على عفوه وربما اغتروا بصلاح آبائهم.

وقد قال العلماء: من رجا شيئاً طلبه، ومن خاف شيئاً هرب منه ومن رجا الغفران مع الإصرار فهو مغرور.

وليعلم أن الله تعالى مع سعة رحمته شديد العقاب، وقد قضى بتخليد الكفار في النار مع أنه لا يضره كفرهم شيئاً.

فالخوف والرجاء سائقان يبعثان على العمل، وما لا يبعث على العمل فهو غرور، يوضح هذا أن رجاء أكثر الخلق يحملهم على البطالة، وإيثار المعاصي.

والعجب أن أهل القرن الأول خافوا وعملوا، ثم أهل هذا الزمان أمنوا مع التقصير واطمأنوا، أتراهم عرفوا من كرم الله تعالى ما لم يعرف الأنبياء والصالحون.؟!

الاغترار واقع بالعلماء والعباد والمتصوفة والأغنياء

ويقع الاغترار في الأغلب في حق أربعة أصناف:

العلماء، والعبَّاد، والمتصوفة، والأغنياء.

الصنف الأول: العلماء: والمغترون منهم فرق:

منهم: فرق أحكموا العلوم الشرعية والعقلية، وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصي، وإلزامها الطاعات، واغتروا بعلمهم، وظنوا أنهم من الله بمكان، ولو نظر هؤلاء بعين البصيرة، علموا أن علم المعاملة لا يراد به إلا العمل، ولولا العمل لم يكن له قدر.

قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩] ولم يقل: قد أفلح من تعلم كيف يزكيها، فإن تلا عليه الشيطان فضائل أهل العلم، فليذكر ما ورد في العالم الفاجر، كقوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف: ١٧٦]، و ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥].

ومنهم: فرقة أخرى أحكموا العلم والعمل الظاهر، ولم يتفقدوا قلوبهم ليمحوا منها الصفات المذمومة، كالكبر والحسد الرياء، وطلب العلو، وطلب الشهرة، فهؤلاء زينوا ظاهرهم، وأهملوا بواطنهم، ونسوا قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[1].

فتعاهدوا الأعمال، ولم يتعاهدوا القلوب، والقلب هو الأصل، إذ لا ينجوا إلا من أتى الله بقلب سليم.

وقد روينا عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ أنه لما قدم الشام عرضت له مخاضة، فنزل عن بعيره، ونزع خفيه وأمسكهما، وخاض الماء، ومعه بعيره، فقال له أبو عبيدة: لقد صنعت اليوم صنعاً عظيماً عند أهل الأرض، فصك في صدره وقال: أو لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدة.

إنكم كنتم أذل وأحقر الناس، فأعزكم الله تعالى برسوله، فمهما تطلبوا العز بغيره يذلكم الله.[2]

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة.
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ٨٣ واسناده صحيح.

وإنما العلم المهم معرفة سلوك الطريق، وقطع عقبات القلب التي هي من الصفات المذمومة، فهي الحجاب بين العبد وبين الله تعالى.

وفرقة أخرى اشتغلوا بالوعظ، وأعلاهم رتبة من يتكلم في أخلاق النفس وصفات القلب، من الخوف والرجاء والصبر والشكر والتوكل والزهد واليقين والإخلاص، وهم يظنون أنهم إذا تكلموا بهذه الصفات ـ وهم منفكون عنها ـ أنهم من أهلها، فهؤلاء يدعون إلى الله تعالى وهم هاربون منه فهم أعظم الناس غرة.

الصنف الثاني: أرباب التعبد والعمل، وهم فرق:

فرقة أهملوا الفرائض واشتغلوا بالنوافل والفضائل، وربما تعمقوا في استعمال الماء حتى خرجوا إلى الوسوسة في الوضوء، فترى أحدهم لا يرضى بالماء المحكوم له بالطهارة شرعاً، بل يقدر له الاحتمالات البعيدة في التنجس، ولا يقدر ذلك في مطعمه، فلو انقلب هذا الاحتياط من الماء إلى المطعم، لكان أشبه بسيرة السلف، فإن عمر رضي الله عنه توضأ من جرة نصرانية مع ظهور احتمال النجاسة، وكان مع هذا يدع أنواعاً من الحلال خوفاً من الوقوع في الحرام.

وقد صح أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم توضأ من مزادة مشركة[1].

ثم منهم من يخرج إلى الإسراف في الماء، ويطول به الأمر، حتى تضيع الصلاة ويخرج وقتها.

ومنهم: من غلبت عليه الوسوسة في تكبيرة الإحرام في الصلاة، حتى ربما فاتته ركعة مع الإمام.

وفرقة أخرى اغتروا بقراءة القرآن، فهم يهذُّونه هذّاً، وربما ختموا في اليوم مرتين، فلسان أحدهم يجري به وقلبه يتردد في أودية الأماني، ولا يتفكر في معاني القرآن ولا يتعظ بمواعظه، لا يقف عند أوامره ونواهيه، فهذا

---

(١) رواه البخاري.

مغرور يظن أن المقصود من القرآن التلاوة فقط.

وفرقة أخرى اغتروا بالصوم وأكثروا منه، وهم لا يحفظون ألسنتهم عن الغيبة والفضول، ولا بطونهم عن الحرام عند الإفطار، ولا خواطرهم من الرياء.

ومنهم: من اغتر بالحج، فيخرج إليه من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون واسترضاء الوالدين، وطلب الزاد الحلال، وقد يفعلون ذلك بعد سقوط فرض الحج، ويضيعون في الطريق العبادة والفرائض، ويعجزون عن طهارة الثوب والبدن، ولا يحترزون من الرفث والخصام، وهم مع ذلك يظنون أنهم على خير، وهم مغرورون.

الصنف الثالث: المتصوفة، والمغرورون منهم فرق:

فرقة منهم اغتروا بالزي والنطق والهيئة، فتشبهوا بالصادقين من الصوفية بالظاهر، ولم يتعبوا أنفسهم في المجاهدة والرياضة، ثم هم يتكالبون على الحرام والشبهات، وأموال السلاطين، ويمزق بعضهم أعراض بعض إذا اختلفوا في غرض، وهؤلاء غرورهم ظاهر.

الصنف الرابع: أرباب الأموال وهم فرق:

ففرقة منهم يحرصون على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر وما يظهر للناس ويكتبون أسماءهم عليها ليتخلد ذكرهم، ويبقى بعد الموت أثرهم، ولو كلف أحدهم أن ينفق ديناراً ولا يكتب اسمه في الموضع الذي أنفق عليه لشق عليه، ولولا أنه يريد وجه الناس لا وجه الله، لما شق عليه ذلك، فإن الله يطلع عليه، سواء كتب اسمه أو لم يكتبه.

وبعضهم يصرف المال في زخرفة المسجد، وتزيينه بالنقوش التي هي منهي عنها وشاغلة للمصلين، فإن المقصود من الصلاة الخشوع وحضور القلب، وذلك يفسد قلوب المصلين.

فأما إن كان المال الذي صرفه في ذلك حراماً، كان أشد في الغرور.

ومنهم: من لا تسمح نفسه إلا بأداء الزكاة فقط، فيخرج الرديء من المال، أو يعطي من الفقراء من يخدمه، ويتردد في حاجاته، أو من يحتاج إليه في المستقبل أو من له فيه غرض.

دواء الغرور

فإن قيل: فما ذكرته من مداخل الغرور أمر لا يكاد يخلص منه.

فالجواب: أن مدار أمر الآخرة على معنًى واحد، وهو تقويم القلب، ولا يعجز عن ذلك إلا من لم تصدق نيته، فإن الإنسان لو اهتم بأمر الآخرة كما يهتم بأمر الدنيا لنالها. وقد فعل ذلك السلف الصالح ومن تبعهم بإحسان.

ويستعان على التخلص من الغرور بثلاثة أشياء.

العقل: وهو النور الأصلي الذي يدرك به الإنسان حقائق الأشياء.

والمعرفة: التي يعرف بها الإنسان نفسه وربه ودنياه وآخرته.

وفي كتاب المحبة، وشرح عجائب القلب، والتفكر، وكتاب الشكر إشارات إلى وصف النفس، ووصف جلال الله سبحانه.

ويستعين على معرفة الدنيا والآخرة بما ذكر في كتاب «ذم الدنيا» وكتاب «ذكر الموت»، فإذا حصلت هذه المعارف، ثار من القلب بمعرفة الله تعالى حب الله، وبمعرفة الآخرة شدة الرغبة فيها، وبمعرفة الدنيا شدة الرغبة عنها، فيصير أهم أموره إليه ما يوصله إلى الله تعالى، وينفعه في الآخرة، وإذا غلبت هذه الإرادة على قلب، صحت نيته في الأمور كلها، واندفع عنه كل غرور.

فإذا غلب حب الله تعالى على قلبه لمعرفته به وبنفسه احتاج إلى الأمر الثالث (وهو العلم)، ونعني به العلم بكيفية سلوك الطريق إلى الله تعالى وآفاتها، والعلم بما يقربه منه ويهديه، وجميع ذلك في كتابنا هذا.

الربع الرابع ربع المنجيات

كتاب التوبة

وذكر شروطها وما يتعلق بذلك

اعلم: أن الذنوب حجاب عن المحبوب، والانصراف عما يبعد عن المحبوب واجب.

وإنما يتم ذلك بالعلم والندم والعزم، فإنه متى لم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن المحبوب، لم يندم على الذنوب، ولم يتوجع بسبب سلوكه طريق البعد، وإذا لم يتوجع لم يرجع.

وقد أمر الله تعالى بالتوبة فقال: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١] وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨]. وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «يا أيها الناس توبوا إلى ربكم، فإني أتوب إلى الله في اليوم مائة مرَّة»[1].

وفي «الصحيحين» من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لله أشد فرحاً بتوبة عبده المؤمن من رجل في أرض دَوِّيةٍ مهلكة، معه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فنام فاستيقظ وقد ذهبت، فطلبها حتى أدركه العطش، ثم قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت

---

(١) رواه مسلم عن الأغر المزني.

فيه، فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ وعنده راحلته، عليها زاده وطعامه وشرابه، فالله أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته».

والأحاديث في هذا كثيرة، والإجماع منعقد على وجوب التوبة، لأن الذنوب مهلكات مبعدات عن الله تعالى، فيجب الهرب منها على الفور.

ما تعظم به الصغائر من الذنوب

اعلم أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر وقد كثر الاختلاف فيها.

ثم اعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب منها الإصرار والمواظبة.

وفي الحديث من رواية ابن عباس رضي الله عنه عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه قال «لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار»[1].

واعلم أن العفو عن كبيرة قد انقضت ولم يتبعها مثلها أرجى من العفو عن صغيرة يواظب عليها العبد.

ومن الأسباب التي تعظم بها الصغائر أن يستصغر الذنب، فإن الذنب كلما استعظمه العبد، صغر عند الله تعالى، وكلما استصغره العبد، كبر عند الله تعالى، فإن استعظامه يصدر عن نفور القلب منه وكراهيته له.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه في أصل جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه، فقال به هكذا. أخرجاه في «الصحيحين».

وإنما يعظم الذنب في قلب المؤمن لعلمه بجلال الله تعالى، فإذا نظر إلى عظمة من عصى، رأى الصغيرة كبيرة.

---

(١) رواه الديلمي عن ابن عباس مرفوعاً والبيهقي عنه موقوفاً وله شاهد عند البغوي.

وفي البخاري من حديث أنس رضي الله عنه: «إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر إن كنا لنعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الموبقات».

وقال بلال بن سعد رحمه الله: لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر إلى عظمة من عصيت.

ومن الأسباب التي تعظم بها الصغائر: أن يفرح بالصغيرة ويتمدح بها، كما يقول: أما رأيتني كيف مزَّقت عرض فلان، وذكرت مساويه حتى خجلته، أو يقول التاجر: أما رأيت كيف روجت عليه الزائف، وكيف خدعته وغبنته، فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر.

ومنها: أن يتهاون بستر الله تعالى وحلمه عنه وإمهاله إياه ولا يدري أن ذلك قد يكون مقتاً ليزداد بالإمهال إثماً.

ومنها: أن يأتي بالذنب ثم يذكره بمحضر من غيره، وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «كل أمتي معافًى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل العمل بالليل، ثم يصبح وقد ستره الله عليه، فيقول: يا فلان: عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره الله عليه، ويصبح يكشف ستر الله عنه».

ومنها: أن يكون المذنب عالماً يُقتدى به، فإذا علم منه الذنب، كبر ذنبه، كلبسه الحرير، ودخوله على الظلمة مع ترك الإنكار عليهم، وإطلاق اللسان في الأعراض، واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه إلا الجاه، كعلم الجدل، فهذه ذنوب يتبع العالم عليها، فيموت ويبقى شره مستطيراً في العالم، فطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه.

وفي الحديث: «ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[1].

---

(١) أخرجه مسلم عن جرير.

فعلى العالم وظيفتان:

إحداهما: ترك الذنب.

والثانية: إخفاؤه إذا أتاه.

وكما تتضاعف أوزار العلماء إذا اتُّبعوا على الذنوب، كذلك تتضاعف حسناتهم إذا اتُّبعوا على الخير.

وينبغي للعالم أن يتوسط في ملبسه ونفقته، وليكن إلى التقلل أميل، فإن الناس ينظرون إليه.

وينبغي له الاحتراز مما يقتدى به فيه، فإنه متى ترخص في الدخول على السلاطين وجمع الحطام، فاقتدى به غيره، كان الإثم عليه، وربما سلم هو في دخوله، ولم يفهموا كيفية سلامته.

شروط التوبة

واعلم: أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزماً وقصداً، وذلك الندم يورثه العلمُ بأن المعاصيَ حائلةٌ بين الإنسان وبين محبوبه.

والندم هو: توجع القلب عند شعوره بفراق المحبوب، وعلامته طول الحزن والبكاء، فإن من استشعر عقوبة نازلة بولده أو من يعزُّ عليه، طال بكاؤه، واشتدت مصيبته، وأيُّ عزيز أعزّ عليه من نفسه؟ وأي عقوبة أشد من النار؟ وأي سبب أدل على نزول العقوبة من المعاصي؟ وأي مخبر أصدق من رسول الله؟ ولو أخبره طبيب أن ولده لا يبرأ من مرضه لاشتد في الحال حزنه، وليس ولده بأعز من نفسه، ولا الطبيب أعلم من الله ورسوله، ولا الموت بأشد من النار، ولا المرض أدل على الموت من المعاصي على سخط الله، والتعرض بها للنار.

وينبغي للتائب: أن يتفقد ما عليه من صلاة فائتة، أو بغير شرطها؟ مثل أن يكون صلاها في ثوب نجس، أو بنية غير صحيحة، لجهله بذلك، فيقضيها كلها.

وكذلك إن كان عليه صوم، أو زكاة،أو حج، أو غير ذلك من الواجبات، يقضيها كلها، ويفتش عن ذلك ويتداركه.

وأما المعاصي، فينبغي أن يفتش من أول بلوغه عن كلِّ معصية صدرت منه، وينظر فيها، فما كان من ذلك فيما بينه وبين الله تعالى، فالتوبة منه الندم والاستغفار.

ثم ينظر إلى مقادير ذنوبه، فيطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها، فيأتي من الحسنات بمقدار تلك السيئات. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «وأتبع السيئة الحسنة تمحها»[1].

مثال ما ذكرنا: أن يكفر سماع الملاهي بسماع القرآن ومجالس الذكر، ويكفر مس المصحف بغير طهارة بإكرامه وكثرة القراءة فيه، وإن أمكنه أن يكتب مصحفاً ويقفه فليفعل، ويكفِّر شرب الخمر بالتصدق بالشراب الحلال. وعلى هذا فاسلك سبيل المضادة، فإن الأمراض إنما تعالج بضدها، فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى.

وأما مظالم العباد: ففيها أيضاً معصية الله تعالى، لأنه نهى عن ظلم العباد، فالظالم لهم قد ارتكب نهيه تعالى، فيتدارك ذلك بالندم والعزم على ترك مثل ذلك في المستقبل، والإتيان بالحسنات المضادة لتلك المظالم كما تقدم في القسم الأول، فيقابل إيذاء الناس بالإحسان إليهم، ويكفِّر غصب الأموال بالتصدق بماله الحلال، ويكفِّر تناول أعراضهم بالثناء على أهل الدين، ويكفِّر قتل النفوس بإنقاذ الناس من المخاطر والمهالك.

هذا فيما يتعلق بحق الله تعالى، فإذا فعل ذلك، لم يكفه حتى يخرج من مظالم العباد.

ومظالمهم إما في النفوس، أو الأموال، أو الأعراض، أو إيذاء القلوب.

---

(١) رواه الترمذي من حديث أبي ذر وقال حسنٌ.

أما الأول: فإنه إذا قتل خطأ أو شبه عمد أوصل الدية إلى مستحقها، إما منه أو من عاقلته، وإن قتل عمداً، وجب عليه القصاص بشروطه، فعليه أن يبذل نفسه لولي الدم، إن شاء قتله، وإن شاء عفا عنه، ولا يجوز له إخفاء أمره، بخلاف ما لو زنا، أو سرق، أو شرب الخمر، أو باشر ما يجب فيه حد لله تعالى، فإنه لا يلزمه في التوبة أن يفضح نفسه، بل عليه أن يستر نفسه، فإن رفع أمره إلى الولي حتى أقام عليه الحد، وقع ذلك موقعه وكانت توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالى، بدليل قصة ماعز والغامدية.

وكذلك حد القذف، لا بد فيه من تحكيم المستحق فيه.

الثاني: المظالم المتعلقة بالأموال، نحو الغصب، والخيانة، والتلبيس في المعاملات، فيجب عليه رد ذلك إلى أصحابه والخروج منه.

وليكتب إلى أصحاب المظالم، وليؤدِّ إليهم حقوقهم، ويستحلهم، فإن كثر ظلمه بحيث لا يقدرعلى أدائه، فليفعل ما يقدر عليه من ذلك، ولم يبق له طريق إلا الاستكثار من الحسنات، لتؤخذ منه في القصاص يوم القيامة فتوضع في موازين أرباب المظالم، فإنها إن لم تف بذلك أخذ من سيئاتهم، فتوضع فوق سيئاته.

هذا حكم المظالم الثابت في الذمة والأموال الحاضرة، فإن كان عنده مال من شيء من ذلك لم يعرف مالكه ولا ورثته، تصدق به عنه، وإن اختلط الحلال بالحرام، عرف قدر الحرام بالاجتهاد، وتصدق بمقداره.

الثالث: الجناية على الأعراض، وإيذاء القلوب، فعليه أن يطلب كل واحد منهم، وليستحله، وليعرفه قدر الجناية، فإن الاستحلال المبهم لا يكفي، وربما لو عرف ذلك لم تطب نفسه بالإحلال،إلا أن تكون تلك الجناية إذا ذكرت كثر الأذى، كنسبته إلى عيب من خفايا عيوبه، أو كزنى بجاريته، فليجتهد في اللطف به والإحسان إليه، ثم ليستحله مبهماً، ولا بد أن يبقى في مثل ذلك مظلمة تجبر بالحسنات يوم القيامة، وكذلك من مات من هؤلاء فإنه يفوت أمره، ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات، لتؤخذ منه عوضاً يوم القيامة، ولا خلاص إلا برجحان الحسنات.

ومن شروط التوبة الصحيحة العزم على أن لا يعود في المستقبل إلى تلك الذنوب، ولا إلى أمثالها، ويعزم على ذلك عزماً مؤكداً.

دواء التوبة

أدوية التوبة كثيرة ونقتصر منها على أهمها وهي أربعة:

وهذه الأربعة هي أهم ما ينبغي للواعظ والمذكر أن يذكر بها الناس.

الأول: أن يتدبر ما في القرآن العزيز من الآيات المخوفة للمذنبين، وما ورد، في الأخبار والآثار من ذلك، وكذلك ما ورد من الآيات والأخبار في مدح التائبين.

النوع الثاني: أن يعتبر بحكايات الأنبياء عليهم السلام، والسلف الصالح، وما أصابهم من المصائب بسبب الذنوب، كحال آدم عليه السلام، وما لقي في عصيانه من الإخراج من الجنة، وما جرى لداود وسليمان ويوسف عليهم السلام، ولم يورد القرآن هذه الأشياء إلا للاعتبار.

وكان من سعادتهم معاجلتهم بذلك، والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثماً، ولأن عذاب الآخرة أشد، وينبغي للمذكر أن يكثر من هذا على أسماع المصرّين، فإنه نافع في تحريك دواعي التوبة.

النوع الثالث: أن يعلم أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع، وأن كل ما يصيب العبد من المصائب، فهو بسبب جناياته، فرب عبد يتساهل في أمر الآخرة يخاف عقوبة الدنيا أكثر لفرط جهله. والذنوب قد يتعجل في الدنيا شؤمها.

وقال الفضيل بن عياض: إني لأعصي الله، فأعرف ذلك في خلق حماري وخادمي.

وقال الحسن: الحسنة نور في القلب، وقوة في البدن، والسيئة ظلمة في القلب ووهن في البدن.

النوع الرابع: تذكر ما ورد من العقوبات في الذنوب، كشرب الخمر والزنى، والقتل، والكبر والحسد، والغيبة.

كتاب الصبر والشكر

فضل الصبر وحقيقته وأقسامه ونحو ذلك

وقد ذكر الله تعالى الصبر في القرآن في نحو من تسعين موضعاً، وأضاف إليه أكثر الخيرات والدرجات وجعلها ثمرة له، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤]. وقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧]. وقال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

فما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر، ولأجل كون الصوم من الصبر قال الله تعالى[1]: «الصوم لي وأنا أجزي به». وقد وعد الله الصابرين بأنه معهم، وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧] والآيات في هذا كثيرة.

وأما الأحاديث: ففي «الصحيحين» من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ما أعطي أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر».

فصل في أقسام الصبر

اعلم أن الصبر على ضربين:

أحدهما: بدني، كتحمل المشاق بالبدن، وكتعاطي الأعمال الشاقة من العبادات أو من غيرها.

---

(١) في الحديث القدسي رواه الشيخان.

الضرب الآخر: هو الصبر النفساني عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى، وهذا الضرب إن كان صبراً عن شهوة البطن والفرج، سمي عفة، وإن كان صبرا في قتال، سمي شجاعة، وإن كان في كظم غيظ، سمي حلماً، وإن كان في نائبة مضجرة، سمي سعة صدر، وإن كان في إخفاء أمر، سمي كتمان سر، وإن كان في فضول عيش، سمي زهداً، وإن كان صبراً على قدر يسير من الحظوظ، سمي قناعة.

وأما المصيبة: فإنه يقتصر فيها على اسم الصبر، فقد بان بما ذكرنا أن أكثر أخلاق الإيمان داخلة في الصبر، وإن اختلفت الأسماء باختلاف المتعلقات.

ثم اعلم: أن العبد لا يستغني عن الصبر في كل حال من الأحوال، وذلك أن جميع ما يلقى العبد في الدنيا لا يخلو من نوعين:

النوع الأول: ما يوافق هواه من الصحة، والسلامة والمال، والجاه، وكثرة العشيرة، والاتباع وجميع ملاذ الدنيا، فالعبد محتاج إلى الصبر في جميع هذه الأمور، فلا يركن إليها، ولا ينهمك في التلذذ بها، ويراعي حق الله تعالى في ماله بالإنفاق، وفي بدنه بالمعونة للحق.

ومتى لم يضبط نفسه عن الانهماك في الملاذ والركون إليها، أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان، حتى قال بعض العارفين: المؤمن يصبر على البلاء، ولا يصبر على العافية إلا صدِّيق.

وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر.

ولذلك قال الله تعالى: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩] وقال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨] ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤].

فالرجل كل الرجل: من يصبر على العافية.

النوع الثاني: المخالف للهوى وهو على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الطاعات، فيحتاج العبد إلى الصبر عليها لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية.

القسم الثاني: الصبر عن المعاصي، وما أحوج العبد إلى ذلك.

ثم إن كان الفعل مما تيسر فعله، كمعاصي اللسان من الغيبة، والكذب والمراء ونحوه، كان الصبر عليه أثقل. فترى الإنسان إذا لبس حريراً، استنكر ذلك، ويغتاب أكثر نهاره، فلا يستنكر ذلك، ومن لم يملك لسانه في المحاورات، ولم يقدر على الصبر، لم ينجه إلا العزلة.

القسم الثالث: ما لا يدخل تحت الاختيار، كالمصائب، مثل موت الأحبة، وهلاك الأموال، وعمى العين، وزوال الصحة، وسائر أنواع البلاء، فالصبر على ذلك من أعلى المقامات، لأن سنده اليقين.

وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «من يرد الله به خيراً يصب منه»[1].

وقريب من هذا القسم: الصبر على أذى الناس، كالذي يؤذى بقول أو فعل أو جناية على نفسه أو ماله، والصبر على ذلك يكون بترك المكافآت.

والصبر على أذى الناس من أعلى المراتب، قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]. وقال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧] وقال: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

---

(١) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة.

الشكر وفضله وأقسامه ونحو ذلك

قال الله تعالى: ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥] وقال الله تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧] وقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] وقطع بالمزيد مع الشكر فقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] مع كونه وقف أشياء كثيرة غيره على المشيئة كقوله: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ [التوبة: ٢٨] وقوله: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾ [الأنعام: ٤١] وقوله: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢١٢] ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [التوبة: ١٥].

ولما عرف إبليس قدر الشكر قال في الطعن على بني آدم: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

وورد أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قام حتى تفطرت قدماه، فقالت له عائشة رضي الله عنها: أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! قال: «أفلا أكون عبداً شاكراً»[1].

وعن معاذ رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إني أحبك فقل: اللهم أعنِّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»[2].

الشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح

والشكر يكون بالقلب، واللسان، والجوارح.

أما بالقلب، فهو: أن يقصد الخير، ويضمره للخلق كافة.

وأما باللسان، فهو: إظهار الشكر لله بالتحميد.

---

(١) متفق عليه.

(٢) أخرجه أبو داود والنسائي عن معاذ قال النووي في الأذكار بإسناد صحيح.

وأما بالجوارح، فهو استعمال نعم الله في طاعته، والتوقي من الاستعانة بها على معصيته، فمن شكر العينين أن تستر كل عيب تراه لمسلم، ومن شكر الأذنين أن تستر كل عيب تسمعه، فهذا يدخل في جملة شكر هذه الأعضاء.

والشكر باللسان: إظهار الرضى عن الله تعالى، وهو مأمور به. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «التحدث بالنعم شكر، وتركها كفر»[1].

وقد كان السلف يتساءلون، ومرادهم استخراج الشكر لله، فيكون الشاكر مطيعاً، والمستنطق مطيعاً.

علاج القلوب الغافلة عن الشكر

فإن قيل: فما علاج القلوب الغافلة عن شكر نعم الله تعالى؟.

فالجواب: أما القلوب المبصرة، فتتأمل ما رمز إليه من أصناف نعم الله عزَّ وجل، وأما القلوب البليدة التي لا تعد النعمة نعمة إلا إذا نزل بها البلاء، فسبيل صاحبها أن ينظر أبداً إلى من دونه، ويفعل ما كان يفعله بعض القدماء، فإنه كان يحضر دار المرضى ليشاهد أنواع البلاء عليهم، ثم يتأمل صحته وسلامته، ويشاهد الجناة الذين يقتلون، وتقطع أيديهم وأرجلهم ويعذبون، فيشكر الله على سلامته من تلك العقوبات، ويحضر المقابر، فيعلم أن أحب الأشياء إلى الموتى أن يردوا إلى الدنيا، ليتدارك من عصى عصيانه، وليزيد في الطاعة من أطاع، فإن يوم القيامة يوم التغابن، فإذا شاهد المقابر وعلم أحب الأشياء إليهم، فليصرف بقية عمره في طاعة الله تعالى وشكره في الإمهال، بأن يصرف العمر إلى ما خلق لأجله، وهو التزود للآخرة.

ومما ينبغي أن تعالج به القلوب البعيدة عن الشكر أن يعرف أن النعمة إذا لم تشكر زالت.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» ٤/ ٢٧٨ من حديث النعمان بن بشير وسنده حسن.

كان الفضيل رحمه الله تعالى يقول: عليكم بمداومة الشكر على النعم، فقل نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم.

واعلم: أن في كل فقر، ومرض، وخوف، وبلاء في الدنيا، خمسة أشياء ينبغي أن يفرح العاقل بها، ويشكر الله عليها.

أحدها: أن كل مصيبة ومرض يتصور أن يكون عليه أكثر منها، لأن مقدورات الله تعالى لا تتناهى، فلو أضعفها الله عزّ وجلّ على العبد، فما كان يمنعه؟ فليشكر إذ لم يكن أعظم.

الثاني: أن المصيبة لم تكن في الدين.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما ابتليت ببلاء إلا كان لله تعالى عليَّ فيه أربع نعم: إذ لم يكن في ديني، وإذ لم يكن أعظم، وإذ لم أحرم الرضى به، وإذ أرجو الثواب عليه.

قال رجل لسهل بن عبد الله: دخل اللص بيتي وأخذ متاعي، فقال: اشكر الله تعالى، لو دخل الشيطان قلبك فأفسد إيمانك، ماذا كنت تصنع؟ ومن استحق أن يضربك مائة سوط، فاقتصر على عشرة، فهو مستحق للشكر.

الثالث: أن ما من عقوبة إلا كان يتصور أن تؤخر إلى الآخرة، ومصائب الدنيا يتسلى عنها فتخف، ومصيبة الآخرة دائمة، وإن لم تدم، فلا سبيل إلى تخفيفها، ومن عجلت عقوبته في الدنيا لم يعاقب ثانياً، كما ورد في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: إن العبد إذا أذنب ذنباً فأصابه شدة وبلاء في الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانياً[1].

وفي «صحيح مسلم»: «إن كل ما يصاب به المسلم يكن كفارة له، حتى النكبة ينكبها، والشوكة يشاكها».

الرابع: أن هذه المصيبة كانت مكتوبة عليه في أم الكتاب، ولم يكن بد من وصولها إليه، فقد وصلت واستراح منها، فهي نعمة.

الخامس: أن ثوابها أكثر منها، فإن مصائب الدنيا طرق إلى الآخرة.

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه من حديث علي.

كتاب الرجاء والخوف

إعلم أن الرجاء والخوف جناحان، بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود، ومطيتان بهما يقطع من طريق الآخرة كل عقبة كؤود، ولا بد من بيان حقيقتهما وفضيلتهما وسببهما، وما يتعلق بذلك. ونحن نذكرهما في شطرين:

الأول: في الرجاء.

والثاني: في الخوف.

الشطر الأول: الرجاء

اسم الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد، ولم يبق إلا ما ليس إلى اختياره، وهو فضل الله سبحانه، بصرف الموانع المفسدات، فالعبد إذا بث بذر الإيمان، وسقاه ماء الطاعات، وطهر القلب من شوك الأخلاق الرديئة، وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك إلى الموت، وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة، كان انتظاره لذلك رجاءً محموداً باعثاً على المواظبة على الطاعات والقيام بمقتضى الإيمان إلى الموت، وإن قطع بذر الإيمان عن تعهده بماء الطاعات أو ترك القلب مشحوناً برذائل الأخلاق، وانهمك في طلب لذات الدنيا، ثم انتظر المغفرة، كان ذلك حمقاً وغروراً. قال الله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩] وذم القائل: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا﴾ [الكهف: ٣٦].

وروى شداد بن أوس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها،

وتمنى على الله عزّ وجلّ الأماني»[1].

وقال معروف الكرخي رحمه الله: رجاؤك لرحمة من لا تطيعه خذلان وحمق. ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨].

والمعنى: أولئك الذين يستحقون أن يرجوا، ولم يرد به تخصيص وجود الرجاء لأن غيرهم أيضاً قد يرجون ذلك.

فضيلة الرجاء

وورد في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «قال الله عزّ وجلّ: أنا عند ظن عبدي بي» وفي رواية أخرى: «فليظن بي ما شاء».

وفي حديث آخر من رواية مسلم: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا يموتنَّ أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله»[2].

دواء الرجاء والسبب الذي يحصل به

اعلم: أن دواء الرجاء يحتاج إليه رجلان.

إما رجل قد غلب عليه اليأس حتى ترك العبادة.

وإما رجل غلب عليه الخوف حتى أضر بنفسه وأهله.

فأما العاصي المغرور المتمني على الله مع الإعراض عن العبادة: فلا

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٦١) وأحمد ٤/ ١٢٤، وابن ماجه (٣٢٦٠)، وفي سنده أبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم الغساني وهو ضعيف كان قد سرق بيته، فاختلط، وأخرجه الحاكم ١/ ٥٧، وصححه على شرط البخاري، فتعقبه الذهبي بقوله: لا والله أبو بكر واهٍ.

(٢) من حديث جابر.

ينبغي أن يستعمل في حقه إلا أدوية الخوف، فإن أدوية الرجاء تنقلب في حقه سموماً.

أما الآيات والأحاديث فمن ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ [الزمر: ٥٣] وقال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ [الشورى: ٥].

ومن الأخبار ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون فيغفر لهم»(١).

وفي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «سددوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لن يدخل أحداً الجنة عمله قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته».

الخوف وحقيقته وبيان درجاته وغير ذلك

إعلم: أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال.

وأخوف الناس أعرفهم بنفسه وبربه، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما رواه الشيخان: «أنا أعرفكم بالله، وأشدكم له خشية»(٢).

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ﴾ [فاطر: ٢٨] وإذا كملت المعرفة، أثمرت الخوف، ففاض أثره على القلب، ثم ظهر على الجوارح والصفات بالنحول والاصفرار والبكاء والغشي، وقد يفضي إلى الموت، وقد يصعد إلى الدماغ فيفسد العقل.

---

(١) رواه مسلم.
(٢) متفق عليه.

وأما ظهور أثره عى الجوارح، فبكفها عن المعاصي، وإلزامها الطاعات، تلافياً لما فرَّط، واستعداداً للمستقبل.

قال بعضهم: من خاف أدلج. وقال آخر: ليس الخائف من بكى، إنما الخائف من ترك ما يقدر عليه.

ومن ثمرات الخوف: أنه يقمع الشهوات، ويكدر اللذات، فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة، كما يصير العسل مكروهاً عند من يشتهيه إذا علم أن فيه سماً، فتحترق الشهوات بالخوف، وتتأدب الجوارح، ويذل القلب ويستكين، ويفارقه الكبر والحقد والحسد، ويصير مستوعب الهم لخوفه، والنظر في خطر عاقبته، فلا يتفرغ لغيره، ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة، والمجاهدة، والضِّنَّة بالأنفاس واللحظات، ومؤاخذة النفس في الخطرات والخطوات والكلمات، ويكون حاله كحال من وقع في في مخالب سبع ضارٍ لا يدري أيغفل عنه فيفلت؟ أو يهجم عليه فيهلكه؟ ولا شغل له إلا ما وقع فيه، فقوة المراقبة والمحاسبة بحسب قوة الخوف، وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله تعالى، وصفاته، وبعيوب النفس، وما بين يديها من الأخطار والأهوال.

وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الأعمال: أن يمنع المحظورات، فإن منع ما يتطرق إليه إمكان التحريم، سمي ورعاً، وإن انضم إليه التجرد والاشتغال بذلك عن فضول العيش، فهو الصدق.

فضيلة الخوف والرجاء
وما ينبغي أن يكون الغالب منهما

فضيلة كل شيء بقدر إعانته على طلب السعادة، وهي لقاء الله تعالى، والقرب منه، فكل ما أعان على ذلك فهو فضيلة.

قال الله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]. وقال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨].

وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إذا اقشعر جلد العبد من مخافة الله عزَّ وجلَّ تحاتت عنه ذنوبه، كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها»(١).

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: قال الله عزّ وجلّ: «وعزتي وجلالي، لا أجمع على عبدي خوفين، ولا أجمع له أمنين، إن أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة، وإن خافني في الدنيا، أمنته يوم القيامة»(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «عينان لا تمسهما النار أبداً: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله»(٣).

واعلم: أن قول القائل: أيهما أفضل الخوف، أو الرجاء؟ كقوله: أيهما أفضل الخبز أو الماء؟.

وجوابه: أن يقال الخبز للجائع أفضل، والماء للعطشان أفضل، فإن اجتمعا، نظر إلى الأغلب، فإن استويا، فهما متساويان والخوف والرجاء دواءان تداوى بهما القلوب، ففضلهما بحسب الداء الموجود، فإن كان الغالب على القلب الأمن من مكر الله، فالخوف أفضل، وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية، وإن كان الغالب اليأس والقنوط فالرجاء أفضل.

وأما عند نزول الموت فالأصلح للإنسان الرجاء لأن الخوف كالسوط الباعث على العمل وليس ثمة عمل، فلا يستفيد الخائف حينئذٍ إلا تقطيع نياط قلبه، والرجاء في هذه الحالة يقوي قلبه، ويحبب إليه ربه، فلا ينبغي لأحد أن يفارق الدنيا إلا محباً لله تعالى محباً للقائه، حسن الظن به.

---

(١) رواه الطبراني والبيهقي من حديث العباس رضي الله عنه بسند ضعيف كما قال الحافظ العراقي.
(٢) أخرجه ابن حبان (٢٤٩٤)، من حديث أبي هريرة، وسنده حسن.
(٣) رواه الترمذي من حديث ابن عباس وقال حسن.

الدواء الذي يستجلب به الخوف

اعلم أن الخوف من الله تعالى على مقامين:

أحدهما: الخوف من عذابه، وهذا خوف عامة الخلق، وهو حاصل بالإيمان بالجنة والنار، وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية، ويضعف هذا الخوف بسبب ضعف الإيمان، أو قوة الغفلة.

وزوال الغفلة يحصل بالذكر، والتفكر في عذاب الآخرة، ويزيد بالنظر إلى الخائفين ومجالستهم، أو سماع أخبارهم.

المقام الثاني: الخوف من الله تعالى، وهو خوف العلماء العارفين.

قال الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٣٠].

وصفاته سبحانه تقتضي الهيبة والخوف، فهم يخافون البعد والحجاب.

ومن قصر، فسبيله أن يعالج نفسه بسماع الأخبار والآثار، فيطالع أحوال الخائفين وأقوالهم، وينسب عقولهم ومناصبهم إلى مناصب الراجين المغرورين، فلا يتمارى في أن الاقتداء بهم أولى، لأنهم الأنبياء والعلماء والأولياء.

ومن أعجب ما ظاهره الرجاء وهو شديد التخويف، قوله تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢] فإنه علق المغفرة على أربعة شروط، يبعد تصحيحها.

ومن المخوفات قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ [العصر: ١، ٢] ثم ذكر بعدها أربعة شروط بها يقع الخلاص من الخسران، وهي الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر.

ولما حضرت سفيان الثوري الوفاة، جعل يبكي، فقال له رجل: يا أبا عبد الله: أراك كثير الذنوب، فرفع شيئاً من الأرض وقال: والله لذنوبي أهون عندي من هذا، ولكن أخاف أن أسلب الإيمان قبل الموت.

وكان سهل رحمه الله تعالى يقول: المريد يخاف أن يبتلى بالمعاصي، والعارف يخاف أن يبتلى بالكفر.

فضيلة الفقر
وتفضيل الفقر على الغنى

أما الآيات فقد قال الله تعالى في معرض المدح في حق الفقراء: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٣] ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ . . . . الآية [لحشر: ٨].

وأما الأخبار فكثيرة، منها: قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «قمت على باب الجنة فإذا عامة من يدخلها الفقراء، إلا أن أصحاب الجد محبوسون» وذكر تمام الحديث. . وهو في «الصحيحين».

وفيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً».

وفيهما من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليالٍ تباعاً حتى قبض.

وفي أفراد مسلم من حديث عمر رضي الله عنه قال: لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يظل اليوم يلتوي ما يجد دقلاً يملأ بطنه[1].

وأما التفضيل بين الغني والفقير، فظاهر النقل يدل على تفضيل الفقير، ولكن لا بد من تفصيل، فنقول: إنما يتصور الشك والخلاف في فقير صابر ليس بحريص بالإضافة إلى غني شاكر ينفق ماله في الخيرات، أو فقير حريص مع غني حريص، إذ لا يخفى أن الفقير القانع أفضل من الغني الحريص الممسك، وأن الغني المنفق ماله في الخير أفضل من الفقير الحريص، فإن كان متمتعاً بالمال في المباحات فالفقير القنوع أفضل منه.

---

(١) الدقل: ردىء التمر.

آداب الفقير في فقره

ينبغي له أن لا يكون كارهاً لما ابتلاه الله به من الفقر.

وأرفع من هذا أن يكون راضياً فرحاً، ويكون متوكلاً على الله سبحانه، واثقاً به ومتى عكس الحال، وكان يشكو إلى الخلق، ولا يشكو إلى الله تعالى، كان الفقر عقوبة في حقه، فلا ينبغي له إظهار الشكوى، بل يظهر التعفف والتجمل.

قال الله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣] وينبغي له أن لا يفتر عن العبادة بسبب فقره.

وينبغي للفقير أن لا يتواضع لغني لأجل غناه، ولا يرغب في مجالسته.

حقيقة الزهد وفضيلته
وذكر درجاته وأقسامه ونحو ذلك

اعلم: أن الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين، والزهد عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه، وشرط المرغوب عنه أن يكون مرغوباً فيه بوجه من الوجوه، فمن رغب عن شيء ليس مرغوباً فيه ولا مطلوباً في نفسه، لم يسم زاهداً، كمن ترك التراب لا يسمى زاهداً.

وقد جرت العادة بتخصيص اسم الزاهد بمن ترك الدنيا، ومن زهد في كل شيء سوى الله تعالى، فهو الزاهد الكامل، ومن زهد في الدنيا مع رغبته في الجنة ونعيمها، فهو أيضاً زاهد، ولكنه دون الأول.

واعلم: أنه ليس من الزهد ترك المال، وبذله على سبيل السخاء والفتوة، واستمالة القلوب، وإنما الزهد أن يترك الدنيا للعلم بحقارتها بالنسبة إلى نفاسة الآخرة.

ومن عرف أن الدنيا كالثلج يذوب، والآخرة كالدر يبقى، قويت رغبته في بيع هذه بهذه.

وقد دل على ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧] وقوله: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

ومن فضيلة الزهد قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١].

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من أصبح وهَمَّهُ الدنيا، شتت الله عليه أمره، وفرق عليه ضيعته، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن أصبح وهمه الاخرة جمع الله له همه، وحفظ عليه ضيعته، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة»[1].

واعلم: أن مثل من ترك الدنيا مثل من منعه عن باب الملك كلب على بابه فألقى إليه لقمة من خبز فشغله بذلك ودخل، فقرب من الملك، أفتراه يرى لنفسه يداً عند الملك بلقمة ألقاها إلى كلبه في مقابلة ما قَدْ نَالَهُ؟.

علامات الزهد

قال ابن المبارك رحمه الله أفضل الزهد إخفاء الزهد، وينبغي أن يعوّل في هذا على ثلاث علامات:

الأولى: أن لا يفرح بموجود، ولا يحزن على مفقود، كما قال تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]. وهذا علامة الزهد في المال.

الثاني: أن يستوي عنده ذامه ومادحه، وهذه علامة الزهد في الجاه.

الثالث: أن يكون أنسه بالله، والغالب على قلبه حلاوة الطاعة.

فأما محبة الدنيا ومحبة الله تعالى، فهما في القلب كالماء والهواء في القدح، إذا دخل الماء خرج الهواء، فلا يجتمعان.

قيل لبعضهم: إلىم أفضى بهم الزهد؟ قال: إلى الأنس بالله.

---

(١) أخرجه ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بسند جيد.

قال يحيى بن معاذ: الدنيا كالعروس، ومن يطلبها ماشطتها[1]، والزاهد يسخم[2] وجهها، وينتف شعرها، ويخرق ثوبها، والعارف مشتغل بالله تعالى عنها.

فهذا ما أردنا ذكره من حقيقة الزهد وأحكامه.

وإذا كان الزهد لا يتم إلا بالتوكل فلنشرع في بيانه إن شاء الله تعالى.

* *

(١) الماشطة: التي تحسن المشط وحرفتها ومعناها هنا التي تزينها.
(٢) يقال: سخم الله وجهه أي سوده من السخمة وهي السواد.

كتاب التوحيد والتوكل

فضيلة التوكل

قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢]. وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

وفي الحديث: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذكر أنه يدخل الجنة من أمته سبعون ألفاً لا حساب عليهم، ثم قال: «هم الذين لا يكتوون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون». أخرجاه في «الصحيحين».

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «لو أنكم توكلتم على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً»(١).

ابتناء التوكل على التوحيد وطبقات التوحيد

والتوكل يبتني على التوحيد، والتوحيد طبقات:

منها: أن يصدق القلب بالوحدانية المترجم عنها قولك، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، فيصدق بهذا اللفظ، لكن من غير معرفة دليل، فهو اعتقاد العامة.

الثانية: أن يرى الأشياء المختلفة، فيراها صادرة عن الواحد، وهذا مقام المقربين.

---

(١) أخرجه الترمذي والحاكم وصححاه من حديث عمر.

الثالثة: أن يرى الإنسان ـ إذا انكشف عن بصيرته ـ أن لا فاعل سوى الله ولم ينظر إلى غيره، بل يكون منه الخوف وله الرجاء وبه الثقة وعليه التوكل، لأنه في الحقيقة هو الفاعل وحده ـ فسبحانه ـ والكل مسخرون له، فلا يعتمد على المطر في خروج الزرع، ولا على الغيم في نزول المطر، ولا على الريح في سير السفينة، فإن الاعتماد على ذلك جهل بحقائق الأمور. ومن انكشفت له الحقائق، علم أن الريح لا تتحرك بنفسها ولا بد لها من محرك، فدرجات التوكل في القوة والضعف بحسب درجات التوحيد واليقين.

التوكل لا ينافى الأخذ بالأسباب

ومما ينبغي أن يعلم أنه ليس من شرط التوكل ترك الأسباب الدافعة للضرر، فلا يجوز النوم في الأرض المسبعة، أو مجرى السيل، أو تحت الجدار الخراب، فكل ذلك منهي عنه.

وكذلك لا ينقض التوكل لبس الدرع، وإغلاق الباب، وشد البعير بالعقال. قال الله تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢].

وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله أعقلها وأتوكل، أو أطلقها وأتوكل؟ قال: «أعقلها وتوكل»(١).

ويتوكل في ذلك كله على المسبب لا على السبب، ويكون راضياً بكل ما يقضي الله عليه. ومتى عرض له إذا سرق متاعه أنه لو احترز لم يسرق، أو أخذ يشكو ما جرى عليه، فقد بان بعده عن التوكل.

---

(١) رواه ابن خزيمة والطبراني من حديث عمرو بن أمية الضمري بإسناد جيد.

كتاب المحبة
والشوق والإنس والرضى

إعلم: أن المحبة لله تعالى هي الغاية القصوى من المقامات، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها، وتابع من توابعها، كالشوق، والأنس، والرضى، فإن من أحب شيئاً اشتاق إليه، وأنس به، ورضي بكل ما يصدر عنه ولا قبل المحبة مقام إلا وهو من مقدماتها، كالتوبة، والصبر، والزهد وغيرها.

واعلم: أن الأمة مجمعة على أن الحب لله ولرسوله فرض، ومن شواهد المحبة قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]. وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] وهذا دليل على إثبات الحب لله، وإثبات التفاوت فيه.

وفي الحديث الصحيح: أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الساعة فقال: «ما أعددت لها؟» قال: يا رسول الله: ما أعددت لها من كثرة صلاة ولا صيام، إلا أني أحب الله ورسوله، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «المرء مع من أحب، وأنت مع من أحببت»[1]، فما فرح المسلمون بعد الإسلام فرحهم بها.

---

(١) متفق عليه من حديث أنس.

الأسباب المقوية
لحب الله تعالى وتفاوت الناس في الحب
وبيان السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله تعالى

واعلم: أن أسعد الناس وأحسنهم حالاً في الآخرة أقواهم حباً لله تعالى، فإن الآخرة معناها القدوم على الله تعالى، ودرك سعادة لقائه. وما أعظم نعيم المحب إذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه، وتمكن من مشاهدته من غير منغص ولا مكدر، إلا أن هذا النعيم على قدر المحبة، فكلما ازداد الحب ازدادت اللذة.

وأصل الحب لا ينفك عنه مؤمن، لأنه لا ينفك عن أصل المعرفة، وأما قوة الحب واستيلاؤه، فذلك ينفك عنه الأكثرون، وإنما يحصل ذلك بشيئين:

أحدهما: قطع علائق الدنيا، وإخراج حب غير الله من القلب، فأحد أسباب ضعف حبه، قوة حب الدنيا، وبقدر ما يأنس القلب بالدنيا ينقص أنسه بالله، والدنيا والآخرة ضرتان، وسبيل قطع الدنيا عن القلب سلوك طريق الزهد، وملازمة الصبر، والانقياد إليهما بزمام الخوف والرجاء، وما ذكرناه من المقامات كالتوبة والصبر والشكر والزهد والخوف وغير ذلك.

السبب الثاني: لقوة المحبة: معرفة الله تعالى، فإذا حصلت المعرفة تبعتها المحبة، ولا يوصل إلى هذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب إلا الفكر الصافي، والذكر الدائم، والتشمير في الطلب، والاستدلال عليها بأفعاله سبحانه: وأقل أفعاله الأرض وما عليها، بالإضافة إلى الملائكة وملكوت السموات.

بيان محبة الله تعالى للعبد ومعناها
وبيـان علامـات محبة العبد لله تعـالى

وأما محبة الله تعالى للعبد، فاعلم:

أن شواهد القرآن متظاهرة على ذلك، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى

سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ [الصف: ٤]. ونبه على أنه لا يعذب من يحبه، لأنه رد على من ادعى أنه حبيبه بقوله: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة: ١٨] وشرط للمحبة غفران الذنوب فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

وفي الحديث الصحيح، من رواية أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن الله تعالى يقول: «ما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه»، إلى آخره. وهو حديث مشهور[1].

ومن علامة حب الله تعالى للعبد، قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله إذا أحب عبداً ابتلاه»[2].

ومن أقوى العلامات، حسن التدبير له، يربيه من الطفولة على أحسن نظام، ويكتب الإيمان في قلبه، وينور له عقله، فيتبع كل ما يقربه، وينفر عن كل ما يبعد عنه، ثم يتولاه بتيسير أموره، من غير ذل للخلق، ويسدد ظاهره وباطنه، ويجعل همه هماً واحداً، فإذا زادت المحبة، شغله به عن كل شيء.

وأما محبة العبد لله تعالى:

فاعلم: أن المحبة يدعيها كل أحد، فما أسهل الدعوى وأعز المعنى، فلا ينبغي أن يغتر الإنسان بتلبيس الشيطان، وخداع النفس إذا ادعت محبة الله تعالى، ما لم يمتحنها بالعلامات، ويطالبها بالبراهين، فمن العلامات حب لقاء الله تعالى في الجنة، فإنه لا يتصور أن يحب القلب محبوباً إلا ويحب لقاءه ومشاهدته، وهذا لا ينافي كراهة الموت، فإن المؤمن يكره الموت، ولقاءُ الله بعد الموت.

ومنها: أن يكون مؤثراً ما أحبه الله تعالى على ما يحبه في ظاهره وباطنه فيجتنب اتباع الهوى، ويعرض عن دعة الكسل، ولا يزال مواظباً على طاعة الله تعالى متقرباً إليه بالنوافل وفي الحديث الصحيح «لا يؤمن أحدكم حتى

---

(١) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة.
(٢) أخرجه الترمذي وقال صحيح غريب.

يكون هواه تبعاً لم ما جئت به»[1].

ومن أحب الله تعالى فلا يعصيه، إلا أن العصيان لا ينافي أصل المحبة إنما يضاد كمالها.

ومنها: أن يكون مستهتراً بذكر الله تعالى لا يفتر عنه لسانه، ولا يخلو عنه قلبه، فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره بالضرورة، ومن ذكر ما يتعلق به.

فعلامة حب الله تعالى حب ذكره، وحب القرآن الذي هو كلامه، وحب رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

ومنها: أن يكون أنسه بالخلوة، ومناجاة الله تعالى، وتلاوة كتابه، فيواظب على التهجد، ويغتنم هدوء الليل وصفاء الوقت بانقطاع العوائق، فإن أقل درجات الحب التلذذ بالخلوة بالحبيب، والتنعم بمناجاته.

ومنها: أن يكون شفيقاً على جميع عباد الله، رحيماً بهم، شديداً على أعدائه، كما قال تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] ولا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يصرفه عن الغضب له صارف، فهذه علامات المحبة، فمن اجتمعت فيه فقد تمت محبته، وصفا في الآخرة شرابه. ومن امتزج بحبه حب غير الله، تنعم في الآخرة بقدر حبه، فيمزج شرابه بشيء من شراب المقربين، كما قال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المطففين: ٢٢ ـ ٢٨] فقوبل الخالص بالصرف، والمشوب بالمشوب. ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

ومنها: أن يكون في حبه خائفاً بين الهيبة والتعظيم، فإن الخوف لا يضاد المحبة، ولخصوص المحبين مخاوف في مقام المحبة ليست لغيرهم،

---

(١) رواه البغوي في شرح السنّة وصححه النووي.

وبعضها أشد من بعض، فأولها خوف الإعراض، وأشد منه خوف الحجاب، وأشد منه خوف الإبعاد.

ومنها: كتمان الحب، واجتناب الدعوى، والتوقي من إظهار الوجد والمحبة، تعظيماً للمحبوب، وإجلالاً له، وهيبة وغيرة على سره، فإن الحب سر من أسرار الحبيب. وقد يقع المحب في دهش وسكر، فيظهر عليه الحب من غير قصد، فهو في ذلك معذور.

معنى الأنس بالله
والرضى بقضاء الله عزّ وجلّ

اعلم: أن من غلب عليه حال الأنس لم تكن شهوته إلا في الانفراد والخلوة، لأن الأنس بالله يلازمه التوحش من غيره، ويكون أثقل الأشياء على القلب كل ما يعوق عن الخلوة فهذه علامة الأُنس وأما الرضى بقضاء الله تعالى، فهو من أعلى مقامات المقربين، وهو من ثمار المحبة، وحقيقته غامضة، ولا ينكشف الأمر فيه إلا لمن يفهمه عن الله تعالى.

ويتصور الرضى فيما يخالف الهوى. وبيان ذلك إذا جرى على الإنسان الألم، فتارة يحس به ويدرك ألمه، ولكنه يكون راضياً به، راغباً في زيادته بعقله، وإن كان كارهاً له بطبعه لما يوصله من الثواب. مثاله أن يلتمس من الحجام الحجامة والفصد، فإنه يدرك ألم ذلك، إلا أنه راض به، وراغب فيه ومتقلد منة الحجام.

ويحصل ذلك بثلاث طرق:

أحدها: علم المؤمن بأن تدبير الله تعالى خير من تدبيره.

الثاني: الرضى بالألم، لما يتوقع من الثواب المدخر، كما تقدم من الرضى بالفصد والحجامة وشرب الأدوية انتظاراً للشفاء.

الثالث: الرضى به لا لخط وراءه، بل لكونه مراد المحبوب، فيكون ألذ الأشياء عنده ما فيه رضى محبوبه، ولو كان في ذلك هلاك نفسه، كما قال بعضهم: فما لجرح إذا أرضاكم ألم.

المحاسبة والمراقبة

قال الله تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩] وقال: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ [الزلزلة: ٦ ـ ٨] فاقتضت هذه الآيات وما أشبهها خطر الحساب في الآخرة.

وتحقق أرباب البصائر أنهم لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة لأنفسهم وصدق المراقبة، فمن حاسب نفسه في الدنيا خف في القيامة حسابه، وحسن منقلبه ومن أهمل المحاسبة دامت حسراته، وذلك لأن المحاسبة باعثة على الطاعة والتقوى وطريق إليهما، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ ﴾ [الحشر: ١٨].

فلما علموا أنه لا ينجيهم إلا الطاعة والتقوى رابطوا أنفسهم أولاً بالمشارطة فشرطوا على أنفسهم الشرائط ووظفوا عليها الوظائف، وأرشدوها إلى طريق الفلاح، وثانياً بالمراقبة فراقبوها هل تفي بشروطها ووظائفها، ولم يهملوها فإنه لا يؤمن عدم وفائها وخيانتها، وثالثاً بالمحاسبة بعد الفراغ هل قامت بوظائفها على الوجه المطلوب منها أم أخلَّت بها؟.

عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم «الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني»[1].

وقال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا وتهيؤا للعرض الأكبر: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٨].

---

(١) أخرجه الترمذي وقال حديث حسن (٢٤٦١)، وأحمد ٤/ ١٢٤، وابن ماجه (٤٢٦٠).

فحتم على كل ذي عزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه، والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها، فإن كل نَفَس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها.

وعلى العاقل أن يكون له في أول النهار ساعة يشارط فيها نفسه ويوظف عليها الوظائف ثم يراقبها يومه، ويكون له في آخر النهار ساعة يحاسبها فيها على جميع ما كان منها، كما يفعل التجار في الدنيا مع شركائهم ـ ولا سيما إذا تفرسوا فيهم الخيانة ـ حيث يشارطونهم ثم يراقبون حركاتهم وسكناتهم، ثم يحاسبونهم آخر كل يوم «فإن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك» كما ورد به الخبر[1].

التفكير

قد أمر الله سبحانه بالتفكر والتدبر في كتابه العزيز، وأثنى على المتفكرين بقوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ [آل عمران: ١٩١] وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله»[2].

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: تفكر ساعة خير من قيام ليلة.

وقال وهب بن منبه: ما طالت فكرة امرىء قط إلا فهم، وما فهم إلا علم، وما علم إلا عمل.

---

(١) قال في كشف الخفا: رواه البيهقي في الزهد بإسناد ضعيف، وله شاهد من حديث أنس.

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» والبيهقي في «الشعب» وابن أبي الدنيا في «التفكير»، وأبو الشيخ في «العظمة» وغيرهم بأسانيد وألفاظ مختلفة، قال السخاوي في «المقاصد الحسنة» هذه الأخبار أسانيدها ضعيفة، لكن اجتماعها يكسب قوة، والمعنى صحيح. في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة «لا يزال الناس يتساءلون حتى يقولون: هذا خَلْقُ اللهِ، فمن خلق الله؟ فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل: آمنت بالله».

وقال بشر الحافي: لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى لما عصوه.

وقال الفريابي في قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، قال: أمنع قلوبهم من التفكر في أمري.

وقد تقدم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله» فالتفكر في ذاته سبحانه ممنوع منه، وذلك أن العقول تتحير في ذلك، فإنه أعظم من أن تمثله العقول بالتفكر، أو تتوهمه القلوب بالتصوير: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ما جاء في فضل ذكر الموت

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أكثروا ذكر هاذم اللذات الموت»(١).

واعلم: أن خطر الموت عظيم، وإنما غفل الناس عنه لقلة فكرهم وذكرهم له، ومن يذكره منهم إنما يذكره بقلب غافل، فلهذا لا ينجع فيه ذكر الموت، والطريق في ذلك أن يفرغ العبد قلبه لذكر الموت الذي هو بين يديه، كالذي يريد أن يسافر إلى مفازة مخطرة، أو يركب البحر، فإنه لا يتفكر إلا في ذلك. وأنفع طريق في ذلك ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله، فيذكر موتهم ومصارعهم تحت الثرى، وذكر القبر ونعيمه وأهواله فإن القبر ـ كما جاء في الخبر ـ إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار(٢).

قال ابن مسعود رضي الله عنه: السعيد من وعظ بغيره. وقال أبو الدراء رضي الله عنه: إذا ذكر الموتى، فعد نفسك كأحدهم.

وينبغي أن يكثر دخول المقابر، ومتى سكنت نفسه إلى شيء في الدنيا،

---

(١) أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حسن.
(٢) أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد.

فليتذكر في الحال أنه لا بد من مفارقته، فيقصر أمله.

وقد رُوي عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمنكبي فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» وكان ابن عمر يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»[1].

محبة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والاستكثار من الإخوان الصالحين والاحتراز عن المظالم

وكن في الدنيا محباً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حريصاً على تعظيم سنّته، لعله يشفع فيك في الآخرة، فإن له شفاعة يتقدم فيها على الأنبياء كلهم، ويسأل الله في أهل الكبائر من أمته فينجيهم. واستكثر من الإخوان الصالحين، فلكل مؤمن شفاعة، ولا تحملنك الغرة على التواني وتسمي ذلك رجاء، فإن من رجا شيئاً طلبه، واحترز من المظالم، فإن من كانت عليه مظالم ومات قبل ردها، فإن غرماءه يحيطون به في القيامة، فهذا يقول: ظلمني، وهذا يقول: استهزأ بي، وهذا يقول: أساء جواري، وهذا يقول: غشني، فلا خلاص لك من أيديهم. فإذا توهمت الخلاص قيل: لا ظلم اليوم.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يخلص المؤمنون يوم القيامة من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة»[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أتدرون ما المفلس»؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، قال:

---

(١) رواه البخاري من حديث ابن عمر.
(٢) أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري.

«إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرح عليه، ثم طرح في النار»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه واله وسلم قال: «لتؤدُّن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء»[2].

وهذه الأحاديث كلها في الصحاح. فانظر ـ وفقك الله ـ إلى بُعْد سلامة حسناتك لدخول ما يبطلها من الرياء والغيبة، فإن سلمت أخذها الخصوم، فتيقظ لنفسك، ولا تفرط في أوقاتك، فإن المسكين من آثر لذة منقطعة، واشترى بها عذاباً شديداً دائماً. نسأل الله السلامة والتوفيق.

باب في ذكر سعة رحمة الله تعالى

نختم الكتاب بذكر سعة رحمة الله عزّ وجلّ، نرجو بذلك فضله، إذ ليس لنا أعمال نرجو بها العفو، لكن نرجو ذلك من رحمته وكرمه. قال الله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لما قضى الله عزّ وجلّ الخلق، كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي» أخرجاه في «الصحيحين».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن لله عزّ وجلّ مائة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الإنس والجن والهوام والبهائم، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على

---

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.
(٢) رواه مسلم من حديث أبي هريرة.

أولادها. وأخَّر تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة»[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن ربكم تبارك وتعالى رحيم، من همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له سيئة واحدة أو يمحوها الله، ولا يهلك على الله تعالى إلا هالك»[2].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يقول الله عزّ وجلّ؛ من عمل حسنة فله عشر أمثالها وأزيد، ومن عمل سيئة، فجزاء سيئة مثلها أو أغفر، ومن اقترب إليَّ شبراً اقتربت إليه ذراعاً، ومن اقترب إليَّ ذراعاً اقتربت إليه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة»[3].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن رجلاً أذنب ذنباً فقال: أي رب! أذنبت ذنباً فاغفر لي، فقال تبارك وتعالى: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي. ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنباً آخر فقال: أي رب! عملت ذنباً فاغفره لي، فقال عزّ وجلّ؛ علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي، ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنباً آخر فقال: أي رب! عملت ذنباً فاغفره لي، فقال: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب، أشهدكم أني قد غفرت لعبدي، فليعمل ما شاء»[4]. هذه الأحاديث كلها صحاح.

وفي «الصحيحين» من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قدم علَى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بسبي، وإذا امرأة من السبي تسعى،

---

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.
(٢) أخرجه في الصحيحين بنحوه.
(٣) رواه مسلم وأحمد.
(٤) رواه البخاري ومسلم.

إذ وجدت صبياً في السبي فأخذته فألصقته ببطنها، فأرضعته، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم) «أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟» قلنا: لا والله. قال: «لله أرحم بعباده من هذه المرأة بولدها».

وفي «الصحيحين» من حديث أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ما من عبد قال: لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة». قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق، وإن زنى وإن سرق! وإن زنى وإن سرق» ثم قال في الرابعة: «على رغم أنف أبي ذر».

فهذه الأحاديث وغيرها مع ما ذكرناها في كتاب الرجاء تبشرنا بكرم الله تعالى وسعة رحمته وجوده، ونحن نرجوا من الله تعالى أن لا يعاملنا بما نستحقه، وأن يتفضل علينا بما هو أهله، ونستغفر الله ـ عزّ وجلّ ـ من أقوالنا التي تخالف أعمالنا ومن كل تصّنع تزيّنا به للناس، وكل علم وعمل قصدناه، ثم خالطه ما يكدره، فبكرمه نستشفع إلى كرمه، وبجوده نسأل من جوده، إنه قريب مجيب.

والحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، وكما ينبغي لكريم وجهه عزّ وجلّ.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

فهرس المحتويات

المقدمة ٣
الربع الأول من الكتاب: ربع العبادات ٧
النية وحقيقتها وفضلها وما يتعلق بذلك ٧
الإخلاص وفضيلته ١٠
حقيقة الإخلاص ودرجاته ودواءه ١٠
الصدق وحقيقته وفضله وأقسامه ١٢
كتاب العلم وفضله ١٥
طلب العلم فريضة ١٦
تقسيم العلوم إلى محمودة وإلى مذمومة ١٩
عالم لم ينفعه الله بعلمه ٢٠
باب في اداب المتعلم والمعلم ٢٠
آفات العلم وبيان علماء السوء وعلماء الآخرة ٢٢
كتاب الطهارة وأسرارها والصلاة وما يتعلق بها ٢٥
فضائل الصلاة ٢٦
آداب تتعلق بصلاة الجمعة ويوم الجمعة ٢٨
كتاب الزكاة وأسرارها وما يتعلق بذلك ٢٩
دقائق الآداب الباطنية للزكاة ٢٩
صدقة التطوع وفضلها وآدابها ٣٠
كتاب الصوم وأسراره ومهماته وما يتعلق به ٣٢
سنن الصوم ٣٢
بيان أسرار الصوم وآدابه ٣٣
كتاب اداب تلاوة القران الكريم وذكر فضله ٣٥
آداب التلاوة ٣٦
كتاب الأذكار والدعوات ٣٩
ذكر أوراد الليل ٤٢

في بيان قيام الليل وفضله ٤٥
الأسباب الميسرة لقيام الليل ٤٥
الربع الثاني: من الكتاب: ربع العبادات ٥١
آداب الأكل والاجتماع عليه ٥١
فضل الكسب والحث عليه ٥٤
الإحسان في المعاملة ٥٤
درجات الورع ٥٥
كتاب آداب الصحبة والأخوة ومعاشرة الخلق ٥٦
بيان الصفات المشروطة فيمن تختار صحبته ٥٧
بيان ما على الإنسان لأخيه من الحقوق ٥٨
حقوق المسلم والرحم والجوار والملك ٥٩
حقوق الأقارب والرحم ٦٣
العزلة والخلطة ٦٤
كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٦٥
مراتب الإنكار وبعض ما ورد فيه ٦٥
باب آداب المعيشة وأخلاق النبوة ٦٦
معجزاته صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ٧٠
الربع الثالث: من الكتاب وهو ربع المهلكات ٧١
شرح عجائب القلب ٧١
الطريق إلى معرفة عيوب النفس ٧٤
علامات حسن الخلق ٧٥
رياضة الصبيان في أول النشأ ٧٧
كتاب كسر الشهوتين: شهوة البطن وشهوة الفرج ٧٩
كتاب آفات اللسان ٨٣
آفات الكلام ٨٤
بيان الأسباب الباعثة على الغيبة وعلاجها ٨٩
الغيبة بالقلب ٩٠
الأعذار المرخصة في الغيبة وكفارة الغيبة ٩٠
سؤال العوام عن صفات الله تعالى ٩٦
كتاب ذم الغضب والحقد والحسد ٩٧

الأسباب المهيجة للغضب وذكر علاج الغضب ٩٨
كظم الغيظ ٩٩
الحلم ٩٩
العفو والرفق ١٠٠
باب في الحقد والحسد ١٠١
باب ذم الدنيا ١٠٢
بيان حقيقة الدنيا والمذموم منها والمحمود ١٠٤
باب ذم البخل والطمع ١٠٥
مدح المال ١٠٥
فوائد المال الدينية وغوائله ١٠٥
ذم الحرص والطمع ومدح القناعة واليأس ١٠٧
البخل وذمه ١٠٧
الإيثار وفضله وبيانه ١٠٨
كتاب ذم الجاه والرياء ١١٠
بيان الرياء وحقيقته وأقسامه وذمه ١١١
الرخصة في قصد إظهار الطاعات ١١٣
ترك الطاعات خوفاً من الرياء ١١٤
بيان ما يصح من نشاط العبد بسبب رؤية الخلق وما لا يصح ١١٥
كتاب ذم الكبر والعجب ١١٦
بيان معالجة الكبر واكتساب التواضع ١١٩
فصل في العجب ١٢٠
علاج العجب ١٢١
كتاب الغرور وأقسامه ودرجاته ١٢٣
غرور أهل العلم ١٢٣
غرور أرباب التعبد والعمل ١٢٥
غرور المتصوفة ١٢٦
غرور أرباب الأموال ١٢٦
الربع الرابع: من الكتاب وهو ربع المنجيات ١٢٨
كتاب التوبة وذكر شروطها وأركانها ١٢٨
شروط التوبة الصحيحة ١٣١

دواء التوبة ١٣٤
كتاب الصبر والشكر ١٣٥
تقسيم الصبر ١٣٥
الشكر وفضله ١٣٨
كتاب الخوف والرجاء ١٤١
فضيلة الرجاء ١٤١
دواء الرجاء ١٤٢
الخوف وحقيقته ودرجاته ١٤٣
فضيلة الخوف والرجاء وما ينبغي أن يكون الغالب منهما ١٤٤
الدواء الذي يستجلب به الخوف ١٤٦
فضيلة الفقر على الغنى ١٤٧
آداب الفقير ١٤٨
حقيقة الزهد وفضله ١٤٨
علامات الزهد ١٤٩
كتاب التوكل والتوحيد ١٥١
فضيلة التوكل ١٥١
كتاب المحبة والشوق والإنس والرضى ١٥٣
الأسباب المقبولة لحب الله ١٥٤
محبة الله للعبد وعلاماتها وعلامات محبة العبد لله ١٥٤
الإنس بالله والرضى بقضائه ١٥٧
باب في المحاسبة والمراقبة ١٥٨
باب التفكر ١٥٩
باب ما جاء في ذكر الموت ١٦٠
محبة الرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم واجتناب المظالم ١٦١
باب في سعة رحمة الله تعالى ١٦٢
فهرس المحتويات ١٦٥